دنيا في رحم الولادة

يمر العالم الإسلامي كله في عصره القريب الأخير، بأشـــد أزمة واجهَته في تاريخه، من حيث الاعتقاد والأخـــلاق والنمط الفكري والمعارف والصناعة والعادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية.

لقد نجح المسلمون في تأسيس أكمل إدارة، تعجز عنها مدارك التصور الإنساني، لّما كانوا زمناً أشد أهل الأديان تمسكاً بالدين، وأقوى الناس التزاماً بالأخلاق، وأسلمهم أعرافاً وتقاليد، وأجدرهم بقيادة الدنيا بسعة أفقهم السياسي والاجتماعي ونُظُمهم الفكرية. ذلك بمعايشتهم للديـــن من غير خلل، وبكمال أخلاقهم، وعقلهم العلمي، وسبقهم الناس في كل عصر. واستطاعوا أن يمدوا سلطة إدارتهم –في ظل الأعمدة الثلاثة: الإلهام والعقل والتجربة– من جبال بيرينة إلى المحيط الهندي، ومن قازان إلى الصومال، ومن وبواتييه[1] إلى ســـد الصين... وأحيوا الشعوب التي في عهدتهم في هذه المساحة الواسعة، بأنظمة متخيلة في المثاليات، حتى جعلوا الدنيا بُعداً من أبعاد الجنة، وذلك في زمن كانت الدنيا تمر بأحلك العصور ظلمة.

ومن أشد ما يؤلم، أن هذا العالم وقد ابتعد عن المحركات التاريخية والقيم الإسلامية التي رفعت هامته قرونا طويلة، وقع أسيراً في قيود الجهل والانحلال الأخلاقي والخرافة والأهواء البدنية والجسمانية، فانحدر من هنا إلى مهاوي الظلام والخسران، وانحدر من هاوية إلى هاوية... مبعثراً، كحبات المسبحة إذا انفرط خيطُها، أو كصفحات كتاب انحل عقدُها، مهاناً تحت الأقدام... مهزوزاً ومزعزعاً، كدحه هباء وكفاحه عقيم، مقصوم الظهر بألف تفرق

(١) بيرينة: سلسة جبال بين فرنسا وإسبانيا. وقازان: عاصمة جمهورية تاتارستان ذات الحكم المحلي في روســـيا، والمدينة على نهر الفولغا. وبواتييه مدينة في فرنسا اشتهرت بمعركة بلاط الشهداء.(المترجم)

وتمزق... حائـــراً حتى البله إذ يغنّي أناشيد الحرية وصدره يتشظى أنيناً في أعظم أنواع الأسر عاراً... أنانياً بلا هوية. أعلن العصيان على الله والرسول متمردا على الأفكار المحظورة(!) لكنه صار بائساً أشـــد من البؤس نفسه تنهشه مخالب كثير من الأفكار المحظورة الأخرى... بـــل مطلقِ المساس بها وإن كان إيماءً!

لكن مدة الشَدَه القاسية الأخيرة هذه لم تدم أمداً، رغماً عن السراق في الخارج، وأكلة السُّحت والحرام في الداخل. فاليوم يخوض المسلمون -وهم خُمس البشرية- كفاح الانبعاث في كل أرض، ويناضلون للخلاص من هذا الأسر اللعين. وإن تعرضهم -في السنين الأخيرة خاصة- كل صباح لمصيبة، وكل مساء لنكبة، أعاهم على فتل حبلهم الروحي وهروعهم إلى الله وشد عزيمة كفاحهم.

ولقد تنفسنا نحن هواء "الحق يعلو ولا يُعلى عليه"[1] شهيقاً وزفيراً، وفتحنا عيوننا وأغمضناها على ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ٢٨) حتى في أحلك المراحل ظلمة، ذلك بفضل توافق روح الإسلام مع طبع الإنسان وإعانته على ارتقائه المادي والمعنوي، وسموق ديننا الجليل إلى ذروة لا تطال في الموازنة بين الدنيا والعقبى... ولم نسقط أبـــداً في اليأس والانكسار. فكيف، والتسارع مطرد في التوجه إلى الإســـلام في الناس من كل فئة، وفي دائرة تتسع، من أمريكا إلى آســـيا، ومن الدول الاسكندنافية إلى استراليا، حتى صار الإسلام الشغل الشاغل؟

فمع المساعي التي تذهل العقل لمذاهب النصارى المتنوعة ومنظماتهم الكثيرة، لم تحظ الكنيسة بعُشر ما حظي بـــه الإسلام من التعلق والاهتمام.

---

(١) "الإسلام يعلو ولا يعلى". رواه الدارقطني والضياء في المختارة والروياني عن عائذ بن عمر والمزني رفعـــه، والطبراني والبيهقي عن معاذ رفعه، وعلقه البخاري في صحيحه. والمشهور على الألسنة زيادة (على) آخراً، بل هي رواية أحمد. والمشهور أيضاً على الألسنة: الحق يعلو ولا يعلى عليه (كشف الخفاء ١/١٢٧).

فيختار مئات الآلاف كل ســـنة الإسلام ديناً ويلجؤون إلى نور القرآن، في القارات كلها، وعلى وعي وعن علم بأنهم سيحارَبون بالجوع والفقر.

رجاؤنا الوطيد المنتظر أن نشهد، قريباً -إن لم ننقض عهد الوفاء مع الله تعالى- معاني ســـورة النصر بعظمتها وهيبتها، كرّة أخرى... وأن ترفرف رايات الإيمان والأمل والأمن، فالاطمئنان والحبور، في ظل الإسلام، مرة أخرى... وأن تتعرف البشرية في الأرض كلها على نظام عالمي جديد فوق ما تتخيل، وأن يستفيد كل إنسان، بقدر ما تسع فطرته وأفق فكره، من تلك النسائم المنعشة.

obeikandl.com

وارثو الأرض

الدنيا تدور، وتدور. وكلما دارت، تنسحب إلى فَلَكها الأصل. فهل وارثو الأرض الحقيقيون جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، فخطفه غيرُهم قبل مدة؟ إن الحق الأول شيء، والحق المستلم بالتمثيل شيء آخر. فالحق إن لم يُمَثّل حسب مقاييس قيَمه الذاتية، يمكن أن يُسترد في كل وقت، وإن مُنح ابتداءً لأمة معينة وَجَمْعٍ معين... فيُستَرد منهم، ويُسَلَّم إلى من يكونون الأسبق والأفضل نسبياً في الخير، إلى أن ينشأ الممثلون الحقيقيون.

يقول الله تعالى في الفرقان البديع البيان: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ولا ينبغي أن يتردد امرؤ في توقع مجيء هذا اليوم، وهو وعد الله المؤكّد. ولن تنحصر هذه الوراثة بالأرض وحدها... ذلك، بأن مَن يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والسماء أيضاً. إذن هي حاكمة في الكون كذلك. ولما كانت هذه الحاكمية بالنيابة والخلافة، فحيازة خصال التمثيل التي يريدها صاحبُ السموات والأرض الحق، لازمة وضرورية. بل يصح القول بأن تلك الرؤيا، وذلك الرجاء، يتحقق بقدر إدراك هذه الخصال ومعايشتها.

ولئن حرّم مالكُ الملك الحقُّ الإرثَ عمن ادعى وراثة الأرض الحقيقية في مرحلة تاريخية كثيفة بالضباب والدخان، لأنهم لم يبذلوا الجهد اللائق بالوراثة السماوية كما ينبغي، فإن الخلاص من هذا الحرمان يبدأ من اللجوء إليه تعالى مجدداً.

لقد وعد الله بإرث الأرض للصالحين من عباده... وهم ممثلو الروحية المحمدية والأخلاق القرآنية، المنشغلون بالاتحاد والاجتماع، المدركون لأحوال

عصرهم، المسلحون بالعلم والفن، المقيمون لميزان الدنيا والعقبى. الحاصل، هو وعد لعقبان الروح وللمعنى الذي يدورون به في مدار نجوم السماء النبوية، وسادتنا الصحابة الكرام. إنه سنة الله... ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣) سنّة ثابتة "وشريعة فطرية" لن تتغير.

فيلزم لوراثة الأرض السعي الجـــاد في الصالحات ابتداءً. بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والســـنة، وجعل الإسلام إحياءً للحياة، ثم احتواء علوم العصر وفنونه. ولنتذكر دائماً أن المجتمعات التي لا تلتفت إلى "الشريعة الفطرية" المتجلية من "القدرة" و"الإرادة"، وإلى "مجموعة" القوانين الإلهية الظاهرة من صفة "الكلام" في الكائنات، وإن الأمم والشعوب التي تتعرض إلى التبدل داخليا في حياتها المعنوية، مصيرها إلى الخذلان غداً، مهما كانت ظاهرةً اليوم. هو ذا التاريخ –وما أشبهه بمقبرة للأمم المنقرضة– يصرخ عاليا بصوت الحقيقة: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) التآكل الروحي والمعنوي في عالم الداخل الذاتي للمجتمع، يوصل إلى انقطاع الأنعم الإلهية عنه. هذه الآيـــة الكريمة تذكّرنا بقاعدة مهمة في الظهور والخذلان، أو العز والذل، وتحدد هذا الفراغ الهائل في مسلمي العصر الحاضر.

ولعلنا نوجز هذا الفراغ بالتآكل الذي أصاب المسلمين جميعاً في بنائهم الداخلي من حيث الحياة القلبية والروحية، وتخلفهم بمراحل طويلة عن العصر في بنائهم الداخلي، وسواءٌ علينا في الحاصل إن كانت العلة في هذا التآكل أو التخلف هي الموانع الخارجية المتتالية منذ قرن أو قرنين، أو هي جهلنا وضعفنا وعجزنا. لكن الثابت هو أن أمة الإسلام تنـــزف الدم في القرون الأخيرة، وتبدو غير مبالية بمصادر قوتها التي بها انتصبت على قدميها وجعلتها في عزها وارثة الأرض حقاً وصدقاً.

أرجوكم التفكر ملياً. هل نجرأ على القول بأن الذين ادّعوا تمثيل الإسلام في مرحلة تعيسة من حياة شعبنا هم أصحاب حياة قلبية وروحية عميقة

الغور بمقاييس الأوائل؟ وهل نشهد أن مسلمي تلك المرحلة كانوا في توتر وانشداد وحماس من أجل ديمومة نمط الحياة للصحابة الكرام، بله الرغب إلى حياة كحياة الصحابة؟ كم وجهاً بهياً نلقى في تلك المرحلة، يختار أن يموت عزيزاً على أن يعيش ذليلاً كما في القول الذي سار مثلاً: "إما الدولة في الأمجاد أو الغربان على الأجساد؟"[1] وكم روحاً منوراً لم يستسلم أبداً لأعدائنا ولم يحد مطلقاً عن استقامة دربه؟

وإن ضعف الإدارة ورجالها خاصة، في تلك المرحلة، يورث حرقة في الفؤاد وغصة في الحلق. فقد عجزنا عن إنقاذ أنفسنا من العيش تحت الوصاية، والقرآن يحرم علينا الحياة تحت وطأة الوصاية. أننكر أننا نتذلل على أعتاب الظالمين الذين يسحقوننا بتحكمهم؟ وهل نزعم بأننا استطعنا أن نستجيب -كما يليق بوارثي الأرض- لنداء القرآن بالاستعداد الكامل والتأهب الحذر ضد الأعداء الألداء لديننا ووطننا وفكرنا؟ وتذكروا قَسَم الرب الجليل في القرآن الكريم بالخيل ووسائل القتال في "سورة العاديات"، وأمره الجليل أن ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

الصحيح هو أننا ارتكبنا خطأ من أعظم ما لا يغفره التاريخ: ضحينا بالدين في سبيل الدنيا، طمعاً في عمارة دنيانا، وتبنينا فهما يرجح الدنيا على الدين... فوجدنا أنفسنا مذّاك أسرى في شباك "الممتَنعات"... وضاع الدين وفرّت الدنيا... وعاش هذا العالم المجيد-التعيس، مرحلة التفريغ: رفضٌ لميراث مبارك من ألف عام، وتلبيس على الشعب بمبدأ مصطنع، وتركيب الدولة العظيمة وتصميم بنائها على قاعدة هشة ومتهاوية، وتعريض التاريخ والقوم والأرومة والثقافة الموروثة إلى الازدراء والتزييف، وإلقاء النفس في أحضان أعداء الألف سنة، ثم دس أشد الأفكار إلحاداً بأفحش الألفاظ طراً

(١) مثل تركي يضرب لافتداء الرجل بنفسه من أجل غاية عزيزة، وغيره يستفيد. وربما للإصرار على بلوغ المنى بالمنايا، فإما الموت أو الأرب. (المترجم)

في جسم الوطن، بل شهدنا انهمار الجوائز والمكافآت على من يزخرف هذه الأفكار بالشعر والنثر، بل السعي لإحياء الشـــيوعية في العواطف والأفكار والأخلاق في عالم المسحوقين والضعفاء والمظلومين.

وكما يتدرع أحيانا نفرٌ من المصابين بداء الإلحاد، العاجزين والشاكّين حتى في أنفسهم، بدرع أيديولوجية سياسية ورجال ومفاهيم ممنوعة عن المس –وهم يلجأون اليوم خاصة إلى أقبح هذه الأساليب وأخزاها– لمهاجمة الدين وإلصاق التهم بالمقدسات، فإني أذكر زمانا كان أمثال هؤلاء التعساء يقيئون حقدهم وكرههم وغيظهم، ويناضلون نضال المستميت لكبح صوت الدين والمسلم، أيام رواج الشيوعية والاشتراكية، متكئين على نظم لا أنساب لها. وما أجمل أبيات شاعر النشيد الوطني وأمل الاستقلال الذي صار نشيده أسطورة تروي انبعاث الشعب من جديد، في تصويره –بالضد– هذه المرحلة المظلمة، إذ يُرتقب فيه المسلم والإسلام ويقتفى أثره، ليقتل وتُطفأ شعلته وتُفسد طبائعه:

قد انسلخ الحياء وانحسر، فالعار ملء البوادي والقفار
كم وجهٍ قبيح لم نعرفه اختفى خلف رقيق الستار
فلا وفاء، والعهد عدم، والأمانة لفظ بلا مدلول
والكذب رائج، والخيانة ملتزمة في كل حال، والحق في المجهول
العقل مرتعب جزع، يا رب: كم رهيب هذا الانقلاب
ضاع الدين والإيمان، فالدين خراب والإيمان تراب.[1]

أبيات مفعمة بحسرة وانكسار تقصم ظهر الشاعر. لكن هذا التسلط القهري والكفري والمزاجي، طوال هذه السنين، عجز عن الاستحواذ تماماً على إرادة هذا الشعب الأصيل، ولم يطفئ أبداً شعلة أفكاره، ذات البُعد

(١) من ديوان "الصفحات" للشاعر محمد عاكف، ص ٤٢٠، وهذه ترجمة من التركية. (المترجم)

الأزلي والأبدي. إن هذه الأفكار صارت حسب الظروف جمرة تحت الرماد، أو شرارة تقدح وتندلع ناراً بحركة طفيفة، أو مصدراً للنور كافياً لإضاءة الدنيا. لكنها، بعوامل التدبير والتمكين الجاذبة نحو المركز، انكمشت في جوف نواة، وتقلصت، فاستطاعت أن تجتاز أعظم محن العصر لتصل إلى الجيل القادر على أداء العمل، في انتظار أن تغمر الأرض كلها بالنور.

من الممكن أن نقيّم سنين التيه الطويلة بمقياس عذابٍ متجرعٍ وجهدٍ مبذول... فلنسعَ مرة أخرى في إثبات أننا وارثو الأرض الحقيقيون بفهم الإســـلام، مصدرنا الكافي لانبعاثنا المادي والمعنوي، كما هو في أصله، ثم بالانخراط في جموع عباد الله الصالحين: السالمين المتينين عاطفة وفكراً وحساً وشعوراً وإرادة، الثابتين القائمين على إعلاء كلمة الله، المنظَّمين في حياتهم العلمية... الموثوقين في سلوكيات العمل، المستقرين في شخصياتهم، القادرين على دحر نوازعهم النفسانية، الموفقين إلى ارتفاق القلب والعقل.

فعلينا أن نواصل المسير في هذا التوجه المفقود والخط المضيّع، بتوفيق الله تعالى ومشيئته.

obeikandl.com

أثناء استكشافنا خط السير

تعرض الإسلام منذ حرماننا من إرث الأرض إلى معاملة يتفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم. وليس مستغرباً أن يكون الظلم والغدر شـــعار الطرف الآخر، لكن ضعف المسلم لا يحتمل ولا يطاق. ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذا، حين يستعيذ بالله من جَلد الفاجر وعجز التَّقي.

لا ينكر أن اهتزاز الفكر المسلم والمنطق المسلم، وتباطؤهما، وخمودهما، بل تكدرهما وفسادهما، قد أبعد المسلمين عن الصراط المستقيم ذي الهدف القرآني والفَلَك النبوي... وحجَب ضوء الشمس عن عالمية الإسلام، وعطل أداء وظيفة الدين المحيط بالعالم. ويبدو واضحاً أن إزالة واقعة الانحراف هذه، المزمنة والمستقرة بهذه الدرجة المشهودة في مسلمي القرون الأخيرة، وفي المرشدين المسلمين خاصة، لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات، ولا بمواعظ ونصائح مسكينة.

إن إزالة هذا الانحراف الهرِم، المادّ جذوره إلى عصور خلت، المُمَدّ بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وتعرّفنا كرة أخرى على الشعور الإســـلامي، والمنطق الإسلامي، وأســـلوب محاكمته العقلية...[1] وإلى حَميّة طويلة وهمة أصيلة وزمان كاف وصبر غير نافد وأمل حيوي وإرادة صلبة وتأنٍ بعد تأنٍ. وبخلاف هذا، إن لم نجد أسلوبنا الذاتي، ولم نبرح تخبطنا في البحث عن سبلٍ الخروج من الحفرة

(١) المقصود من المحاكمة أينما وردت هي المحاكمة العقلية المنطقية بتمحيص المسألة وفحص الأدلـــة وإجـــراء القياس وإعمال الاستنباط لاستحصال النتيجة. (المترجم)

التي سقطنا فيها انطلاقا من مواقع ليست التي وقعنا فيها، فإننا نخدع أنفسنا ونعرض الأجيال القابلة إلى الانكسار مرة أخرى.

لذلك، لا مناص من إحياء الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي من أجل الاقتراب من الوجود والحوادث بسياق إسلامي، وتقييم الأشياء كلها بمنطق إسلامي. ويلزم لذلك أولاً: الاستشعار، فالتعقل، بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات سليمة، مناسبة لنفس الأمر، ثابتة المحور في مبدئها وغايتها، متساندة بعضها مع بعض، منفتحة الأجزاء فيما بينها، فكأنها نغم مسبوك من أصوات متنوعة بأسلوب واحد تعبيراً عن طابع معين، أو نقش مركزي تحيط به نقوش أخرى لا بد لها من روابط معنوية تشدها إلى المركز... وثانياً: أن يقود العقل والمحاكمة إلى تفهم المناسبات بكلية وجمعية في عموم الأشياء وعموم الوقائع المعروضة لمطالعتنا، بمعانٍ ومحتويات وحكم مشحونة ملء الدنيا، ككتاب لمنظومة حكمة فائضة... أو كأثر فني يعكس ملايين الألوان للشؤون الإلهية فيغرق العيون ببريقه وتلألئه، وبرؤية وبصيرة ثاقبة تبصر من خلال الجزئيات ما وراء ستار الكليات، من غير أن تتعثر بحوادث جزئية ومنفردة منها، وفي الكليات: الامتداد منها إلى أبعد تجمعات الجزئيات والتفرعات. ذلك، كيلا ينقض، أو يُذوي، أو يضاد، قسم من جهدنا لقسم آخر منه، أو جزء من فكرنا لجزء آخر، أو مدة من زماننا لمدة أخرى.

ولا ينبغي أن يظن بهذا الكلام أننا لا ندعو إلى التخصص أو التفرع. فالخير في أن يتخصص أمرؤ في فرع من الفروع، ثم يرتقي إلى ذروة عرش الكمال فيه، ويسعى إلى نيل أرقى المنى في تلك الساحة... لكن مع العناية بمعنى الكل ومحتواه وحاله، بل بمقصده وغايته، في أثناء سعيه وجده. ولابد أن يتحقق هذا، سواء بالشعور التضامني المشترك، أو بسائق العلم والحس، أو بعمل منسق متكامل، أو بالدهاء العقلي. فلا شبهة ولا شك في حاجتنا الماسة إلى هذا النظر الكلي والشمولي، والتقييم العمومي والموضوعي.

نعم، الحاجة ماسة في أيامنا إلى عقلٍ موضوعي يتصور الأمس واليوم معاً، قادرٍ على التمعن في الكائنات والإنسان والحياة دفعة واحدة، موهوبٍ في المقايسة والمقارنة، منفتحٍ على بُعد أسباب الوجود وعلله، محيطٍ بظهور الأمم والجماعات واضمحلالها، حَكَمٍ فيما يغلط فيه علم الاجتماع وعلم النفس أو يصيب، رقيبٍ على تحول أحوال الحضارات بالولادة والموت والتقهقر، مقتدرٍ في التمييز بين الغاية والوسيلة، مالكٍ لسلامة الوجدان واستقامة الفكر، محترمٍ للمقصد، خبيرٍ بحكمة التشريع ومراد صاحب الشريعة، عالمٍ بالأسس المحضة لأحكام الدين، مُستَقْبِلٍ للواردات الإلهية.

إن جُنْد الإدراك الذين يؤدون وظائف مثل فتح الآفاق أمام نظامنا الفكري المنغلق... ويشغّلون تبلّدنا في المحاكمة العقلية المتقادمة المبتعدة عن السماوية بتدويرها في الفَلَك القرآني... ولا يغفلون أثناء ذلك عن المناسبة المفعمة بالسر بين الكائنات والإنسان والحياة... ويمثلون أنموذجا للدين يجسد إحياء الأوامر الدينية وتحقيقها بحرص بالغ، إلى جانب مراعاتهم أصلاً مهما من أصول الدوام والتمادي في السبل المسلوكة، وهو التوافق مع آفاق صاحب الشريعة في التيسير والمواءمة والمسامحة، حتى تكون سمته فيضان التبشير وترك التنفير... وإنهاء العقم المزمن منذ قرون بتسليم قوة العلم والتفكر لإمرة الإسلام وتفسيره... وتحويل كل مكان، مدرسةً أم معبداً، شارعاً أم مسكناً، إلى مراصد ترصد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان... وتشغيل منافذ الرؤية المتأملة في اللانهاية، والتي يمتد زمان تعطلها إلى قرون، بل إلى ردح أبعد من قرون... وتقديم أجندة حضور الإسلام في مراتب النظر دوماً وفي وحدات الحياة كلها... وتحكيم الحساسية في قضية السبب والنتيجة حسب مبدأ تناسب العلّية، والتصرف الرياضي والعقلاني... هؤلاء، هم مَن يعينوننا في التجدد، ويعلّموننا أركان الحضور والوجود الدائم الأبدي.

وقد يستنكر ويكره بعضهم هذا الاهتمام بالأسباب الموفي إلى مباهاتها بنفسها وسوء أدبها. وأنا أشارك في هذا الذهاب والتوجس شيئاً ما. ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهية الجليلة وأننا مخلوقون وهو الخالق. لكن الوجه الآخر للمسألة هو: أن الله تعالى قد أمر بقبول شيءٍ يرجع إلينا، شبيهٍ بأمرٍ اعتباري،[1] كداعية إلى إرادته ومشيئته، وجعل لها أهمية، ووعد بتحقيق أعظم الأعمال بناء على هذا المخطط، وحققها... وقد خلق هذا الشيء الاعتباري وسيلة للإثم والثواب، وجعله أساساً للجزاء عقاباً ومكافأة، وقَبِله فاعلاً في إسناد الخير والشر... ومع أن هذا الأمر الاعتباري ليس مُعَبّراً عن أي قيمة في ذاته، لكنه ﷻ أرجع إليه -باعتبار النتائج المترتبة عليه- قيَما فوق قيَم. ولو لم يكن كذلك، لتوقفت الحياة تماماً، وسقط الإنسان إلى درك الجماد، وبطل التكليف وذهب كل شيء انجراراً إلى العبث. فلا بد من إيلاء الاهتمام به، ومراعاة متطلباته. فإن الله تعالى يُظهر بُعدا خفيا من أسرار قدرته بجعل ذلك شرطاً عاديا في إعمار الدنيا والعقبى، ووسيلة مرعية وشبيهة بزر سحري لعملية كهربية تضيء العوالم، فيوجد بحراً في قطرة، وشمساً في ذرة وعالما في عدم من عدم.

إن حكم الأسباب أو أي شيء آخر لا يجري على الله تعالى، ولا يقيّد إرادته ومشيئته الإلهية. الله يحكم كل شيء. الله هو الحاكم الأحد المطلق. ومراعاة الأسباب وَعَدُّ العلل وسائل صغيرة ليس إلاّ بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتبار بأن الإنسان سيعاقَب إن خالف الشريعة الفطرية المعروفة بسُنّة الله عقاباً معظمُه في الدنيا وقسمٌ منه في الآخرة.

---

(١) المقصود هنا هو الإرادة الجزئية الموكلة إلى الإنسان. وهو أمر اعتباري لا وجود له خارج العقل. (المترجم)

وما أحكم جواب الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ: "نفرّ من قدر الله إلى قدر الله"،[1] حينما استشكل تأليف امتناعه عن دخول مدينة انتشر فيها الوباء مع الرضا بالقضاء والتسليم للقدر!

فالأصل أن برمجة الجهود والحركية[2] حسب النتيجة، وتحويلها إلى غاية المنى، والوقوع تحت عبئها، يورث قلقاً وعذاباً، ويبعد عن توقير الله تعالى – حاشاه– وكأنها عملية مساومة معه. وإن تعطيل الإرادة والاختيار، وانتظار النتيجة بسلسلة من الخوارق في عالم لا يأبه بالمعتاد هو قناع للأحلام والمسكنة. ألا ينذرنا القرآن الكريم مراراً وتكراراً ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وأن ما يلقاه الإنسان من خير وشر هو بعمله وفعله وتصرفه؟ ألا يُعلمنا أعظم أنموذج لموازنة القلب والعقل والوجدان وصورة فخر الإنسانية وسيد الأنام ﷺ، بالارتباط الوثيق والتناسب الخفي بين السبب والنتيجة والعلة والمعلول والسعي والثمرة حينما يذكرنا قائلا: "لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم".[3]

إن الإسلام، إذ ينظم بالكتاب والسنة حياة الدنيا والعقبى للمؤمن، وحال اعتقاده وعمله، وكيفية عبادته وأخلاقه، يهمس في الوقت نفسه من خلال الأسطر بأشياء أخرى من عالم الامتداد إلى الأبعاد، في أذن دنيا الإنسان الروحية والعقلية والقلبية والوجدانية والحسية، مولِّداً في أغوار ذاته أنساماً أخروية ومشاعر لاهوتية التلون، ليحييه في كل آن مرة أخرى في بُعد آخر. يحييه، ليجد الإنسان نفسه في موقع خلافة الله تعالى، وحال المداخلة في

(١) البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

(٢) يستعمل المؤلف كلمة (Action) ويعني بها القضية والدعوة والرسالة والتأثير. وقد ترجمناها حيثما وردت إلى "الحركية". وأرجو ملاحظة الجمع بين هذه المعاني في الذهن كلما وردت. (المترجم)

(٣) الترمذي، صفة القيامة ١.

الأشياء، ومقام الفهم والاستقراء لأســـرار سنة الله. ثم يرى ويستشعر في كتاب الكائنات النابع من مصدر الإرادة والمشيئة، وبيانه المبين المترشح من نبع كلامه تعالى، كأنهما وجهان لواحد... ويوازن تصوّره وفكره، وحياته وتصرفاته، وملاحظات دنياه وأخراه، بالموازنة التي في الأرض والسماء.

نعم، إن الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق. ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبّر عنه.

من الممكن أن ينتقل الإسلام الذي هو أعمّ عطية من الخالق للكل، إلى منظومة فعالة بواســـطة إحسان آخر مما يُعدّ من أوائل إحساناته، وهـــو الفهرســـت المعنوي للوجود كله، المتشكل من العقل والوجدان والروح والجسد واللطائف. وسوف نشرح هذه المسألة في موضعها.

نحو عالم الغد

لم يبرح العالم الإسلامي منذ قرون، الدوران في دائرة مفرغة حائمة حول أغلاطها من غير أن تجد جوهر ذاتها وروحها. فـــإن تقدمت خطوة إلى الأمام، أعقبتها بتراجع خطوات إلى الوراء أو انحرافات عن سواء السبيل. بل كثيراً ما خلف هذا السير المشؤوم أو الانحراف اللعين الذي طغت خطاياه على صوابه وأغرقت أضراره فوائده، آثاراً غير محمودة على الجهود الذاتية الاجتماعية في تحري ســـبل العودة إلى الذات، فعرّضت الأعمال الطيبة ورجالها إلى التزلزل من الأعماق. هذه الحال تـــدل على أن عقد الخرز قد انفرط في العالم، وأن دولاب الدول والشعوب يدور خلاف مصالحها.

لذلك، نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعاً إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإســـلام،[1] وشـــعور الإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأســـلوب الإفادة عن نفسه، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال.

إن أساس حياتنا المعنوية قائم على الفكر الديني والتصورات الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقة منه. فإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف ســـنة إلى الوراء. إن الدين الذي يهدف إلى غايـــات مثل إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، والانفتاح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدُّنَى، وإشباع حس الأبد في الوجدان... ليس منحصراً على العبادات. إنـــه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعاً... ويتدخل في كل

(١) المقصود من تلقيات الإسلام أو متلقياته: طبيعة فهمه وتداعياته في الإنسان ونوع التـــصورات بـــشأنه. (المترجم)

شيء لنا: عقليٍ وروحيٍ وقلبيٍ... ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا حسب نيتنا، ويسربل بلونه كل شيء.

نعم، كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهد له متلون بالعقبى والرضا. فلا محل في حياته للفصل بين الدنيا والعقبى... ولا برزخ بين قلبه وعقله... وعواطفه ومنطقه مزيج واحد... ولا تتناكر محاكمته العقلية مع إلهاماته. كذا، التجربة والخبرة في عالم فكره سُلّمٌ من النور يتصل بالعقل، والعلم برج عال بحسابات الفراسة. فهو نسر يحلق إلى اللانهاية دوماً بأجنحة العشق العملاقة في هذا السُلّم، وحلاجٌ يندف قطن الوجود ندفاً بفطنته في هذا البرج. وحيث لا فراغ في أي زاوية من زوايا هذا الفهم، فلا كلام عن إهمال الإنسان الفردي أو الاجتماعي في هذه المنظومة.

والذين يختلقون صداماً بين الدين وبين العلم والمحاكمة العقلية، هم بؤساء جهلوا روح الدين والعقل. أما إلقاء مسؤولية الصراع بين الفئات الاجتماعية المتنوعة على كاهل الدين، فهو سقوط مريع في الانخداع. لأن الصراع بين التكتلات نابع من الجهل والمنافع الشخصية والمصالح الفئوية. والدين لا يؤيد مثل هذه العواطف والأفكار. ونشهد في الواقع صداماً وصراعاً بين قسم من المتدينين أيضاً. هذا يرجع إلى أن هؤلاء الحاملين لنفس الجذوة الروحية لم يبلغوا الدرجة اللازمة في صدق الإيمان وحفظ الإخلاص... وربما يندحرون أمام عواطفهم أحيانا... لأن الفضيلة المؤمنة تقطع الطريق عن هذا البؤس. والواقع أن سبيل النجاة الوحيد من السقوط في هذا البؤس هو إحياء منظومات الدين كلها وجعلها دم المجتمع ولحمه.

إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى "بعث ما بعد الموت"، وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وبإفادة دافئة، إلى "إحياء"... إحياء يستجيب لمتطلبات أصناف البشر كلهم ويحتضن الحياة كلها، في كل زمان

ومكان، بقدر السعة والعالمية التي تعد بها مرونة النصوص، ضمن الجد والجهد للحفاظ على صفاء أصل الدين.

لقد سمح هذا النظام المبارك منذ أن شعرنا بظله فوق رؤوسنا -أدام الله حفظه علينا إلى الأبد- بفسحة للولوج من بابه مراراً إلى التجديد والإصلاح، فشهدنا الانبعاث مراراً. المذاهب عموماً وفي الأكثر تمثّل التجديد في الفقه والحقوق. وصارت الطرق الصوفية سبلاً رئيسة تزيّن مسالك القلب والروح. وانشغلت الكتاتيب والمدارس عموماً -يوم أن كانت لنا- بإضفاء المعنى للوجود والكائنات. أما التجديد والانبعاث المأمول في الحاضر، فيتحقق بالتوفيق بين كل ما ذكرناه وحشدها جمعاً في مجمع واحد. ويعني هذا، الانسلاخ من القالب إلى اللب، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح، في كل مسألة. ويعني أيضاً التوجّه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الإحسان في الحس والفكر...

نعم، ينبغي أن تكون "الكمية" تامة و"النوعية" هدفاً في العبادات، والكلمات وسيلة والروح والصدق أساساً في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشعور لازما. وفي كل هذه: الله غاية القصد... الصلاة ليست قياماً وقعودا... ولا الزكاة مالاً مطروحاً تبرئة للذمة لا يعلم أين ذهابه... ولئن صار الصيام جوعاً وعطشا، فما اختلافه عن الحِمْية؟ والحج إن لم يجر في فَلَكِه، فما اختلافه عن سياحة بين مدينة وأخرى تكسب بعضهم عملاتٍ أجنبية؟ والعبادات قد تصير كلعب الأطفال إن انحصرت في الكم... وصيحاتُ الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الحلوق... والحج والعمرة إن صارت مشقة تُحتمل للتسلي بحمل لقب "الحاج" ومناقب الحج، فسوف نحرج في المعاني والمرامي...

إن سبيل الخلاص من كل من هذا الاضمحلال هدراً في شِباك السلبيات، هو ملء فراغاتنا، وإعلان النفير العام الذي يزيل ضعفنا وينقذنا

من عبودية الجسم والبدن. وإذ ينقذنا، يجهز أطبـــاء الروح والمعنى الذين يقودون القلب والروح إلى مستوى الحياة... أطبـــاء منفتحة قلوبهم على الروح والمعنى، منطلقون في ســـاحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات كلها، من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنـــون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسية، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياســـة إلى السير والسلوك. إن هذا الشعب ليس بحاجة إلى هذا وذاك، بل إلى مثل هذا العقل. وكما يلتقي العقل ويحاور كل جهة بعيدة وقريبة في البدن عبر الأعصاب، ويرسل الرسائل إلى أقصى نقاطه ويستلم منها، فإن فريق العقل هذا سيكون في تعاط مع جميع حجرات بدن الشعب وجزيئاته ويصل إلى جميع الوحدات في المجتمع، ويضع يد تصرفه في جميع أجزائه الحيوية... ويهمس في أذن كل صنف شيئاً من الروح ومن المعنى، مقبلاً من الماضي ومكتسباً عمقا أشد غورا في الحاضر، وممتداً إلى الآتي.

هذا الفريق يسع الجميع. يحتضن الطفل الملتزم والمؤدب في المدارس، كما يحتضن أبناء الوطن السائبين وغير المنضبطين في الأزقة. ويُفرغ في كل صدر إلهامات روحه، ويُعدّهم لفائدة المجتمع دهاة مؤهلين بعلوم الغد ومهاراته، ويرفع كل إنسان وكل شريحة إلى الكمالات الإنسانية بالتطهر من لوثات العصر في صفاء مآوي النور ومجمّعات إقامة الطلاب وبيوت الطلبة والمدارس والجامعات والمعابد والتكايا...

هـــذا الفريق يؤنس وحشية الصحف والمجلات والراديـــو والتلفزيون ووسائل الإعلام القوية، ليجعلها صوتاً ونَفَساً للديـــن والمِلّة من وجهة، ويرشد بها من وجهة أخرى الأحاسيس السوداء والأفكار القاتمة والأصوات المدلهمة، إلى سبيل الصيرورة الإنسانية.

هذا الفريق ينقذ التربية والتعليم المتغيرة صورة وتوجهاً كل يوم تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية، من وصاية الأفكار الدخيلة،

فينظمها بصورة طيّعة لمتطلبات الحاضر وحسب السياق التاريخي، ويرفعها لتكون مؤسسة ذات رسالة ببرنامجها وخطتها وأسلوبها.

بفضل ذلك، ترتقي الأمة من الفقر الحسي والفكري، والحفظ الببغائي والشكلية، إلى الفكر العلمي الحق، ومن تزكية أنواع الرذائل باسم الفن، إلى الفن والجمال الحق، ومن العادة والإدمان المجهول نشأة ونسباً، إلى الشعور الأخلاقي النابع من الدين والتاريخ، ومن أقفال الأفكار المتنوعة القابعة في صدورنا والتي أضنتنا وأنهكتنا، إلى واحدية الخدمة، التسليم، الشعور، التوكل.

لنضع جانبا بلبلة التكوينات الجديـــدة في العالم. نحن لا نصدّق بولادة شيء جديـــد من الهندام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشـــتراكية، أو هجين الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة هي أنه إن كان ثَمّ عالَمٌ مشرّعُ الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن. وسيتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن.

هذه الولادة الجديدة، ستُكسب عالم مشاعرنا وأفكارنا، كذلك مفاهيم فننا وجمالنا، أعماقاً مختلفة اختلافاً شـــاســـعاً عما عليها الآن. وفي ظله سنكتشف أذواقنا البديعة ونصل إلى موســـيقانا، ونعثر على رومانسيتنا... ويستقر شعبنا في حرز مصان ومتين من كل جهة، سواء في العلم والفن، أو الفكر والأخلاق، فنضمن مستقبله.

شعارنا في هذا المضمار النفير والإقدام، ومصدر قوتنا الإيمان والحقيقة. لقد أخفق دوماً الذين داروا بنا على الأبواب الأخرى على أمل الشفاء من الأدواء بالانفلات من الإيمان ومن الأخلاق. ولقد نلنا نحن الشرف، وبقينا شرفاء، بفضل الله الذي ارتبطت قلوبنا به، وفي ظل تسليمنا وانتمائنا إلى أمتنا التي رجحناها على كل شيء دنيوي وبلادنا التي وُجدنا في صدرها ونشأنا في حضنها. ولا أظن بأنني في حاجة إلى شرح الواقع بعكس الحال!

وسنتابع في فصل آخر مواضيع في الانبعاث من جديد.

نحو عالمنا الذاتي

لقد تكرر الكلام كثيراً عن دعاوى البناء من جديد في عهود وأزمان متعددة وبلاد متنوعة من الأرض وبعناوين مختلفة. ويبقى صدق هذه الدعاوى قابلاً للأخذ والرد ومفتوحاً للنقاش في كل وقت. لكن هنالك عالَمٌ يوفي عملية البناء حقها... باحتواء الوجود والأسرار خلف ستار الوجود، والإنسان والحياة جمعاً، حرٌ وطليق من كل القيود المذكورة آنفاً. إن هذا العالم، وباعتبار الأمد الطويل خاصة، هو عالمنا ودنيانا.

وما زالت الأرض بعد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، ورغم أنف الأشياء، قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر، ومالكة لطاقة تحقق بعثاً جديداً بعد الموت! وإن أمتنا تمتلك تراكماً علمياً تجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة. وزد على ذلك أن قيادتها للأمم آماداً مديدة تركت فرصاً مكتسبة من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة لها منذ الزمن الغابر، وهي مقتدرة على استعمالها اليوم. بلى، إنها جاهزة تماماً من وجهة الرمز والتمثيل، لكن عليها أن تستعمل المحركات التاريخية التي تُعد دم هذا الماضي العظيم العريق ولحمه، استعمالاً سليماً وصحيحاً.

كان عالمنا زمناً يسابق العصر في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجمال، وفي كل مجال ومضمار، بدهاة نفشوا الوجود كالخوارزمي والبيروني وابن سينا والزهراوي، وأساتذة الحقوق كأبي حنيفة والإمام محمد والسرخسي والمرغناني، واستعدادات اجتازت المقاييس الإنسانية وعاشت الحياة في خط الوجدان بتغليب القلب والمنطق كالإمام

الغزالي والرازي ومولانا جلال الديـــن الرومي والشـــاه النقشبند، وأبطال المحاكمة والفطنة كالإمام الماتريدي والتفتازاني والجرجاني والدواني، وعمالقة الفن كالمعمار خيرالدين والمعمار سنان وعطري وده ده أفندي.. ويمكنه بعد زمن العطل العابـــر أن يحرّك مجدداً كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة. إن الدنيا تستطيع أن تفتح صفحة جديدة بـــإدراك أذواق البديعيـــات الحقيقية من خلال نقش الروح والمعنى في كل مكان، والفن المتحري عن اللانهايـــة في هذا النقش، المتصف بالأخروية، والمترقق، والمتحد مع الأبعاد، في تجديد الاستماع إلى روح الإسلام ومعناه كما في تفسير الوجود مجدداً، وفي أجـــواء التصوف اللاهوتية العميقة الغور كما في الميتافيزيقا، وفي المحاسبة والمراقبة الإسلامية كما في التيقظ والتمكين اللذين يكسبان الإنسان قيماً فوق قيَم، وفي المدن وتخطيط المدن الذي يمكّن عالمنا الذاتي من التنفس ويجعل عالمنا الذاتي يتنفسه كما في القيـــم الجمالية العائدة للجمهور. نعم، تستطيع الدنيا أن تفتح هذه الصفحة الجديدة، بـــل الصحيح أنها قادرة عليه على الرغم من أنه يبدو عملا غير يسير.

إننا لن نقدر على أن نفتح الصفحة الجديـــدة من غير انتزاع المُتَلَقَّيات (التصورات) والأفكار المنحرفة السائبة في هذا الوطن منذ سنين وسنين، مثل إضناء الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل أجوائنا الدينية. ووضع الأقفال على ألســـنة القلوب بتنسية الوجد والعشق تماماً، وانحباس المثقفين المفكرين والدارســـين في قمقم المادية الوضعية الكثيفة، وإحلال التشدق محل الصلابة والثبات في الحق، وحتى في طلب الآخرة والجنة، طلبها بنظر دوام السعادة الدنيوية المعتادة!

وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحنا في القرون الأخيرة. بل الإفادة بأن بلوغ بـــرّ الأمان عسير غاية العسر ما لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل

الحرص والكسل وطلب الشـــهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاسيس والمشاعر، ونتوجه إلى الحق بما يُعدّ جوهر الإسلام وحقيقته، كالاستغناء والجسارة والمحوية والاهتمام بِهَمّ الآخر والروحانية والربانية، ونُصفّى بمشاعر الحق ونصب في قالبه. لكن العسر الشديد لا يعني المحال. فما لم تخل الســـاحة -وهي ليست خالية- من شـــجعان مخلصين للجوهر والذات، مالكين لإرادة التجديد، قادريـــن على احتضان العصر، فلابد أن يتحقق هذا التجدد والتغير... تجدد وتغير ذو أبعاد قرآنية وسجايا فطرية... يتحقق بوتيرة تُعجز الذيـــن يصرون على حبس أنفسهم خشية الانفتاح على هذا الفهم أو يصرون على الانغلاق، تعجزهم عن صد التيار. فإن النهضات العالمية التي عرفناها وعلمنا بها حتى اليوم، كانت ثمرة سعي الدهـــاء الفردي، لا حملات الكتل البشريـــة وحركاتها... فقد كانت التجديدات والتغييرات التي بلغت حـــد الانفجار أحيانا في السنوات المتعاقبة بعد ظهور الإسلام، من آثـــار عـــدد من الأرواح الفذة والعقول الذكية الاستثنائية والأفكار الممتازة التي سمقت في العهد الأموي والعباسي، كما كانت الفكرة الغائرة العمق والروح المتعمقة والفطرة البراقة خلف التحرك والتكون "عن المركز" في العهد الإيلخاني والقره خـــاني والســـلجوقي والعثماني. إن المسلك الذي افتتحه هؤلاء الرواد الذين ظهروا بمعنوية عالية في كل مرحلة من المراحل، تحول بعد لأيٍ ومدةٍ إلى مدارس وتيارات تنفخ روح البناء من جديد في الكتل البشرية. فتابع من سار خلفهم طريق أولئك المرشدين الأرواح وتعقبوا درب أفكارهم، وانحشرت الحشود على أثرهم ولجأوا إلى إقليم ضيائهم. فعاش هؤلاء المرشدون العظام مع الحشود وكأنهم القلب والدم منهم. أما في مراحل أفول الأدمغة العظيمة هذه، وغياب مَن يشغل فراغهم من بعدهم، فإن الذهول وتفحم الفكر وعقم التجديد أصاب المجتمع بكل أصنافه وطبقاته.

وفي هذه الأثناء، إذ تتحول الأيام إلى الربيع، ويتبع الفجر فجراً، ينتعش أملنا وانتظارنا. فندعو ربنا تعالى أن يهبنا إرادة مؤيدة بالمشيئة تعيننا في إقامة صرح روحنا، وجعل قلوبنا خضراء كربوع الجنة، وإيصال ألبابنا إلى أسرار حرم الألوهية، وأن يُلهم شـــعبنا طريق التجدد في خط السير المحمدي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إن سعينا لتحقيق هذا الأمل وانتظارنا لـــه هو حقنا وواجبنا وضرورة إيماننا. ومن اللوازم أثناء اســـتعمال حقنا والإيفاء بواجبنا أن نراجع ماضينا المجيد باستمرار، ونلجأ إلى قيمنا التي جعلت أمسنا زاخراً بالعظمة. فعندما حقق الغرب نهضة كهذه في مسيره نحو المدنية الحاضرة، التجأ إلى المسيحية واتخذ اليونانية مثلاً وتزاوج مع الرومانية. أشـــباه هـــذه الأسس مقبولة للحضارات الأخرى في كل زمان. إذن سنلجأ نحن أيضاً إلى ماضينا وجذور معانينا ونقتبس من مثلنا الروحية التي لم يتكدر صفاؤها بتعاقب الزمان. وسنأخذ من إبداعات عصورنا البيضاء التي نراها شـــريحتنا الزمنية الذهبية ومصدر فخرنا الأبدي، في الفكر الفلسفي كما في الحقيقة الصوفية، وفي طبيعة متلقيات الديـــن المستقرة كما في بعده الأخلاقي، ونـــزيد بغزل النقوش على أردية مرفلة تسربل المستقبل. في هذه النقوش يتجاور مولانا جلال الديـــن الرومي مع التفتازاني، ويسجد يونس أمْرَهْ مع مخدوم قولي، ويضم "فضولي" إلى صدره "عاكف". ويقف الأمير اولوغ تحية لأبي حنيفة، ويجلس الخواجة الدهّاني قبالة الإمام الغزالي، ويلقي إبن عربي وردة على إبن سينا، ويفيض الإمام الرباني السرهندي ببشرى بديع الزمان النورسي... يتوحد عماليق الأفكار لهذا الماضي المارد العظيم بقاماتهم العملاقة، فيهمسون في آذاننا طلاسم الخلاص والانبعاث.

المأمول أن نكتشف الشـــعور والفكر والمنهج والفلسفة التي تجمع كل هذه، وأن نجد أسلوبنا السماوي والخالد. من أجل ذلك، أرى أن نعيد النظر

في طرقنا التي نسلكها قبل كل شيء، وأن نجدد إعمارها. فمن الأسس المهمة لنهضتنا إلهام العشق والشوق وبَركتهما، والمتانة والرصانة التي توحي بأمان العقل والمنطق، واستقرار وإنسانية الحرية والعودة إلى الذات، وبُعد التعمق والدقة والتجريد، ومحور المنطق، وروح الوحي في فننا وفلسفتنا. ومن ضمانات الثبات على النهج الصحيح في التجدد أن نجعل رضا الله غاية الآمال، والروح أساساً للحركية في جهود الشعور بالواجب، وحب الإنسان وهذا الوطن حرصاً لا يستغنى عنه، والأخلاقية زاداً حيوياً في المسير لا يترك أبداً، والكائنات والإنسان والحياة: كتابا محفوفاً بالأسرار لا يُكفُ عن نبشه فصلاً بعد فصل تحت منشور القرآن البلوري، ومصدراً للقوة مهماً لشخصية الإنسان وقيمه البشرية الحقيقية، والقرآن والسـنة محوراً للطريق الموصل إلى الهدف والغاية، متناسباً مع حقانية الهدف والغاية ومُقَدَّسيّته.

وإن أموراً يمكن أن نسميها بوصفة طبية لخلاصنا، مثل: أن نجعل وطننا وإنساننا مقصودنا ونجهد في تغيير مصيرنا المعكوس، ونحيي أجسادنا بالروح المتشكل من عجين مجتمعنا، ونفتح صفحة تاريخية نقية وجديرة لشعبنا، هي شيء من الأسس لحضارة تفوق المدن الفاضلة ورؤيا التجدد. وسنعرض هذه الأسس بشيء من التفصيل في فصل يأتي.

ونحن نقيم صرح الروح. . .

سبق أن أشرنا إلى صفات "ورثة الأرض" إجمالاً. ونريد الآن أن نتفسح في ملامحها بشيء أكثر تفصيلاً:

الوصف الأول لوارث الأرض هـــو الإيمان الكامل. يحدد القرآن الكريم "الإيمان بالله" غايـــة لخلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة وبُعدِ العشق والشوق وتلوّن الخطوط الروحانيـــة. والإنسان مكلّف ببناء عالمه الإيماني والتفكري حيناً بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود، وحينـــا بالتقاط شـــرائح من الوجود وتقييمها في ذاتـــه. ويعني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه. فالإنسان لا يستطيع أن يستشعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجـــود وغاياته، ويطلع على كنـــه الكائنات والحوادث وما وراء ســـتار الأشياء، إلاّ في ضياء الإيمان... وبعد الاطلاع يحيط فهماً بالوجود في أبعاده الذاتية.

إن الكفر نظام منغلق وخانق. ففي نظر الكافر: بـــدأ الوجود بفوضى، وتطور في المجاهل المخيفة للصُّدف، وينـــزلق متسارعاً إلى نهاية رهيبة. وفي هذا السير المتدحرج والمنـــزلق، ليس لنا مكان ضيق، بل ولا موطئ قدم فيه نفحة رحمانية ينشرح بها الروح، أو نسيم أمان يحتضن آمالنا الإنسانية.

أما إنسان الإيمان المستشعر بمنشئه وخط حركته، وتوجهاته: إلى أين وإلى ماذا، ووظائفه، ومسؤولياته، فإنه يرى كل شيء نـــوراً وضياء، ويطأ قدمه من غير قلق أينما يطأ، ويسير نحو هدفه الموجّه إليه بـــلا خوف وفي ثقة... وإذ يسير، يُنَقّب خمسين ألف مرة عن الوجود وما وراء ســـتار الوجود، ويرشح الأشياء والحوادث خمسين ألف مرة في الأنبيق، ويصر على طرْق كل

باب، ويبحث عن وشـــائج المناسبة مع كل شيء... وحين يقصر ما علمه وما وجـــده، يكتفي بالحقائق التي رآها وعرفها في وجه التحقيقات التي استحصلها هو أو غيره حتى ذلك الحين، ثم يواصل المسير.

في إطار هذه الموازين، يُعد سائح الإيمان مكتشفاً لمصدر مهم للقوة. هذه الخزينة والذخيرة التعبوية، العائدة للأبعاد الأخرى، والمرموز لها بـــ"لا حول ولا قوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعاً يلغي حسّ الحاجة إلى مصدر غيره عند من يحوز على هذا المصدر للقوة، وهذا النور. فإنه لا يـــرى إلا هو ســـبحانه، ولا يعرف إلا هو، ولا يفر إلا إليه هو، ولا يحيا إلا متوجها إليه هو، فيستطيع تحدي كل القوى الدنيوية بقدر توغل معرفته واعتماده على الله، ويعيش في شوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشد المواقف سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء.

وأكتفي هنا بهذا القدر عن هذا الموضوع محيلاً إلى تراث ضخم من الآثار تعالجه، وفي مقدمتها كليات رسائل النور.

الوصف الثاني للوارث هو العشق الذي يُعد أهم إكســـير للحيـــاة في الانبعاث من جديـــد. إن من يُعَمّر ويجهز قلبه بالإيمان بالله وبمعرفته، يحس حسب درجته بمحبة عميقة وعشق أصيل لكل البشر، بل لكل الوجود... يحس فيعيش عمره كله وسط حالات المد والجزر للعشق والمواجد والجذبات والانجذابات والأذواق الروحانية التي تحتضن الوجود كله جمعاً. وكما في كل مرحلة زمنية، نحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب من العشق، وأن تطفح من الشوق، في فهم جديد وطري، لتحقيق انبعاث عظيم. فما من حركة أو حملة باقية باعتبار نتائجها، من غير العشق... وخصوصاً إن كانت الحركة أو الحملة ذات امتدادات إلى العقبى وأبعاد ما وراءها. إن العشق الذي نقدمه في إطار تعيين موقعنا في ثنايا المناسبات والعلائق أمام الله سبحانه، الحاضر الموجود الخلاق... واســـتشعار الحظوظ من أن وجودنا مخلوق

باعتبار وجودنا ظل ضيائه ووجوده هو... وتَقَبُّل كلامه غايةً للخلق، والسعي لتصيّدها بلا توان أو وهن، هو مصدر للقوة مكنون بالسر، وسرمد لا ينضب. ولا ينبغي أن يهمل ورثة الأرض هذا المصدر، وأن يَحْيَوه جياشاً وفواراً. لقد تعرف الغرب على العشق في أبعاد تلون المادة من خلف الفلاسفة وأجواء الدخان والضباب الفلسفية، فذاق طعمه وعاش الشبهات والتذبذبات على طول الطريق. أما نحن فننظر إلى الوجود، ومصدر الوجود، بعدسة الكتاب والسنة، ونحقق حب الخالق الذي نذكي جذوته ولهيبه في قلوبنا، والعشق والحمى، والعلائق التي نرتبط بها مع الوجود كله من أجله هو، باللجوء إلى رحاب موازنة المصدريـــن، مع الانفتاح على الميتافيزيقا. ذلك بأن منشأ الإنسان، وموقعه في الكائنات، وغاية وجوده، والصراط الذي يسير فيه، ونهاية هذا الصراط في هذين المصدرين، منسجم انسجاماً عجيباً مع فكر الإنسان وحسه وشعوره وتوقعاته، فلا نملك دونه -إذ نحس به- إلا الإعجاب والاندهاش. هاتـــان المحجتان البيضاوان، هما لأرباب القلوب فوارة العشق والشوق ومَنْجَم الجذب والانجذاب. فلن يعود خالياً من يراجعهما بصفوة الحس وإذن الاحتياج، ولن يموت أبداً من يلجأ إليهما. والمفيد أن يلجأ اللاجئون بتعمق وإخلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني السرهندي والشاه ولي الله الدهلوي وبديع الزمان النورسي، وأن يقتربوا بحماس مولانا جلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، وأن يتوجهوا بالحركية لخالد وعقبة وصلاح الدين ومحمد الفاتح وياووز سليم... نعم، وخطوتنا الثانية هي أن نمزج عشقهم وشوقهم الطافح غير المقيد بالأزمنة والأمكنة كلها، بأصول عصرنا وأساليبه ووسائله، في بيدر واحد، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحده زمان ولا يبلى، وبالتالي إلى ميتافيزيقية كونية.

الوصف الثالث للوارث هـــو التوجه إلى العلم بميزان العقل والمنطق والشعور. هذا التوجه الذي يشكل جواباً عن تمايل البشر وحَيْدِهِ في انسياق

البشرية بفرضيات سوداء في مرحلة زمنية معينة، سيكون خطوة مهمة باسم الخلاص الإنساني. ولقد أشار بديع الزمان النورسي إلى أن البشرية تتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن... فتستمد كل قوتها من العلم... ويمتلك العلم مـــرة أخرى الحكم والقوة... وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعا في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع... ويعني عودة الحياة إلى العلم والبيان.[1] ولا نرى سبيلاً غير هذا، يسلخنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيئتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق. فإن عبورنا لفراغ قرون، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمن في شعورنا الباطن، لابـــد لـــه من إمرار العلم في منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله والإفادة عنه. وقد شهدنا في تاريخنا القريب خللاً ملموساً في الفكر العلمي وتزلزلاً في توقير رجال العلم يصعب تعميره، بسبب تشتت التوجهات والأهداف حينا، أو اختلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة حيناً آخر. واستفاد الأجانب المقيمون في بلادنـــا من هذا الفراغ فائدة جمة، فافتتحوا المدارس بنشاط في كل زاوية من زوايـــا الوطن، ولقحوا أجيالنا باللقاح الأجنبي من خلال أعشاش التعليم. وتطوعت شريحة منا لتمكين خير أبناء الوطن استعداداً وقابلية، من اشغال مقاعد الدارسة فيها، بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب. ثم بعد مدة، ضاع الدين وضاع الإيمان، فالدين خراب والإيمان تراب عند هذه الأجيال الغرة المخدوعة. ضاع، فوقعنا كأمة في ابتذال الذات فكراً وتصوراً وفناً وحياة. وهل نعجب من النتيجة، ما دامت هذه المدارس التي سلمناها الأدمغة الطرية بلا توجس أو قلق، تضع في اعتبارها من غير استثناء وفي كل وقت، تقديم الثقافة الأمريكية والأخلاق الفرنسية والعادات والأعراف الإنكليزية، على

(١) انظر الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٢٩٢.

العلم والتفكير العلمي. ولذلك، بـــدأ شـــبابنا التسلي بألعاب الماركسية والدوركهمية والليبنينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتى، بدلاً عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنيتهم. فمنهم من واسى نفسه بأحلام الشيوعية ودكتاتورية البروليتاريا، ومنهم من انغرز في عقدة فرويد، ومنهم من ضيّع عقله في الوجودية مشدوداً إلى سارتر، ومنهم من أسال ماركوس رضابه، ومنهم من أهدر عمره لاهثاً خلف هذيان كامو... لقد عشنا هذا كله في الوطن، وتولى ما يسمى بموائل العلم دَوْر الحاضن لذلك. وفي مرحلة الأزمة هذه، لم تن أصوات القتام وأفواه السواد من تلطيخ اسم الدين وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. من العسير علينا أن ننسى تلك المرحلة ودُماها الرخيصة. إن من هيأوا تلك الأرضية ضد إرادة إنساننا ووطننا، سيُذكرون دائماً في وجدان الحشد البشري على أنهم مجرمون تاريخياً.

والآن، نريـــد أن ندع مهندسي تلك الأيـــام الســـوداء في خلوة مع مساوئهم، وفينا منهم غثيان في أنفسنا وأنين في قلوبنا، ونتحدث عن عمال الفكر المشتغلين في بناء مستقبلنا.

نعم، لابد من تحقيق تجددنا الذاتي في ظل الفكر العلمي الذي نشحن شبابنا به، وبتمازجهم تمازجاً كاملاً بالعلم والفكر، كما فعلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة. إن القلق المحسوس بـــه في الوجدان العام لسيرنـــا المنحوس، وخفقان القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وسنين، ورد الفعل لدى إنساننا على استغلالنا قرونا، أورثنا اليوم شهقة كشهقة النبي آدم، ونشيجاً كنشيج النبي يونس، وأنيناً كأنين أيوب عليهم السلام. لكننا نحس اليوم بانكماش المسافة واقترابنا من نقطة الوصول إلى مسافة خطوات، بدفع هذا الشعور والعقل، وبإرشاد تجارب التاريخ.

الوصف الرابع للوارث هـــو إعـــادة النظر في ملاحظاته عن الكائنات والإنسان والحياة، وتمييز الصحيح من الخطأ فيها بميزان دقيق. ونذكّر بما يأتي في هذا الشأن:

١– إن الكائنات كتاب أشهره الله تعالى أمام العيون ليراجَع باستمرار، والإنسان منشور بلوري مؤهّل لرصد الأعماق في الوجود وفهرست شفاف للدُنى جميعاً.. والحياة تَرَشُّحُ هذا الكتاب وهذا الفهرست، وَتَمَثُّلُ المعاني في انعكاس صدى البيان الإلهي. وما دامت الكائنات والإنسان والحياة باعتبار تلوناتها أوجهاً متنوعة لحقيقة واحدة –وهي كذلك حقاً– فإن تفريقها عن بعضها وتقطيعها ظلم وازدراء للوجود والإنسان، لما فيه من إخلال بانسجام الحقيقة.

إن قراءة بيـــان الله الحق ســـبحانه من صفة الكلام الجليلة، وفهمه، وإطاعته، والانقياد لـــه واجب... فكذلك معرفة الحق تعالى وإدراكه بدلالة الأشياء والحوادث جميعاً، التي صورها ســـبحانه بعلمه وأوجدها بقدرته ومشيئته تعالى.. ثم رؤية طرق التوفيق، أســـاس لا يمكن التخلي عنه. فإن الفرقان العظيم من صفة كلامه هو، روحُ الوجود كله والمصـــدرُ الأوحد لسعادة الدنيا والعقبى. وإن كتـــاب الكائنات هـــو جسدُ تلك الحقيقة، وحركية مهمة مؤثرة في حياة الدنيا مباشـــرة، وفي حياة العقبى بالوسيلة، باعتبـــار تمثيلها لفروع العلم المتنوعة واحتوائها عليها. إذن، لإدراك كلا الكتابين وتحويل فهمهما إلى الواقع العملي، ثم نسج الحياة كلها بمقتضى فهمهما: جزاء الحسنى، ولإهمالهما وغض البصر عنهما، وحتى لتفسيرهما تفسيراً غير مناسب أو إهمال تحويلهما إلى الواقع المعاش: جزاء السوء.

٢– ينبغي تقييم الإنسان بالتحري عن الأعماق الإنسانية الحقيقية في الشعور والفكر والشخصية. وكذلك تقييمه في نظر الحق تعالى وعند الناس، كامن في تلك الخصوصيات. فإن الخصال الإنسانية السامية وعمق المشاعر والفكر وسلامته الشخصية كبطاقة اعتماد مطلوبة دائماً وفي كل مكان. ومن يكدر إيمانه وإذعانه بأوصاف وأفكار كفرية، ويُثير القلق والشبهة في محيطه بشخصيته، لن يكون مظهراً لتجلي تأييد الحق تعالى وعنايته. وكذلك

لا يمكن أن يحافظ على احترام الناس له وثقتهم به. فإن الحق تعالى، والناس، يقيّمون الإنسان بخصاله الإنسانية وشخصيته الرفيعة ويكافئونه على ذلك. وبناء عليه، لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمنين الصالحين. كما لا يتصور أن يفشل فشلا ذريعاً أناسٌ يتقدمون خطوات في سلامة شخصياتهم وخصالهم الإنسانية السامية وإن لم يظهر عليهم مظاهر المسلمين الصالحين. فإن تقدير الله تعالى ومكافأته تنظر إلى الخصال والصفات، وكذلك حُسن قبول البشر يقوم عليها بدرجة ما.

٣- ينبغي أن تكون الوسائل إلى الهدف المشروع والحق، شرعيةً وحقاً. إن السائرين في الخط الإسلامي يتحرّون في كل عمل مشروعية الحق في آمالهم وغاياتهم كلها. والتزام مشروعية الوسائل إلى ذلك الحق أيضاً واجب عليهم. فلا يمكن تحصيل رضا الحق تعالى من غير الإخلاص والصدق الذاتي، ولا يمكن خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى مراميه الحقيقية بوسائل شيطانية البتة. ولعلنا نرى حيناً إمكانية ذلك. لكن المستهلك لرصيده من الاعتبار والاحترام في سبل الباطل، والفاقد لرعاية الحق تعالى والتفات الناس إليه، لن يدوم نجاحه أمداً بعيداً يقيناً.

الوصف الخامس للوارث هو أن يكون حراً في التفكير وموقّراً لحرية التفكير. إن التحرر وتذوق حس الحرية عمق مهم لإرادة الإنسان وباب سحري ينفتح على أسرار الذات. ومن العسير أن نصف بالإنسان مَن لم ينطلق في ذاك العمق و لم يلج من ذاك الباب. ومنذ سنين وسنين ونحن نتلوى ألماً في طوق الأسر الخارجي والداخلي الرهيب. ولقد ضيقوا علينا وسلطوا أثقالهم أنواعاً وألوانا على مشاعرنا وأفكارنا ونحن في طوق الأسر الذي يخنقنا... فدع عنك التجدد والتطور في هذا التحديد للقراءة والتفكير والإحساس والحياة، واسأل إنْ كان في قدرة الإنسان البقاء بملَكَاته ومواهبه

الإنسانية في هذا الوسط؟ فإن حماية المستوى الإنساني البسيط والخام في هذه الأرضية عسير، فكيف بإنضاج بشر يسمقون إلى العُلى بروح التجديد ويمدون البصر إلى اللانهايات؟ فلا ننتظر في هذا الوسط إلا أناساً ضعاف الشـــخصية وأرواحاً هزيلة ضاوية ومشاعر مشلولة. ونعرف من تاريخنا القريب أن الأسرة والشارع ومؤسسات التعليم وأوساط الفنون قد نفخت في أرواحنا الأفكار الشاذة والموازين الفاسدة، فقلبت رأســاً على عقب كل شيء، من المادة إلى الروح، ومن الفيزياء إلى الميتافيزيقا. في هذه المرحلة المذكورة، كنا نبدي انحرافا إذ نفكر، ونخطط لكل شيء على محور الأنانية، ولا نحسب حساباً لوجود معتقدات وقناعات أخرى غير معتقداتنا وقناعاتنا، ونلجأ إلى القوة باستمرار كلما سنحت الفرص. وإذ نلجأ إلى القوة، نخنق أنفاس الحق والإرادة والفكر الحر ونجثم على صدور الآخرين. والمؤلم أن هذه الأمور لم تنته بعدُ، ولا نجزم بانتهائها في المستقبل. لكن الواقع يقتضي -إذ نمضي في طريق التجديد أمةً- أن نعيد النظر إلى المحركات التاريخية لألف سنة مضت، وأن نستجوب "التغييرات" و"التحولات" المختلفة لمائة وخمسين سنة مضت. هذا ضروري، لأن الأحكام والقرارات تُقَوْلَب في الحاضر حسب مقدسات(!) مصطنعة. والقرارات المنبثقة من تحت ثقل الفهم السائد المعلوم معلولة... وغير ولودة... وعاجزة بديهةً عن الإعداد للمرحلة المضيئة المأمولة. ولئن أُعدّت لشيء، فإنها تُعِدّ للتصارع بين الحشود المنحشرة في شِـــباك غرائز الحرص القاتلة، والخصام بين الأحزاب، والعراك بين الشعوب، والصدام بين القوات. وإنها اليوم هي سبب تضارب شريحة مع أخرى، وتحول التنوع إلى التخاصم، وحتى الوحشية المشهودة في الأرض! فربما كان العالم يختلف عما عليه الآن اختلافاً بعيداً، لو أن البشر لم يكونوا أنانيين ومنساقين للرغبات وقساة إلى هذه الدرجة.

علينا إذن أن نكون أفسح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو عوالم مختلفة، سواء في سلوكنا مع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية وتمسكنا برغباتنا. فالحاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر وتنفتح على العلم والبحث العلمي وتستشعر التوافق بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحيـــاة. ولن يقتدر على ذلك في هذا الزمان إلا جماعة تتحمل دعوة مشبعة بالدهاء. وفي الواقع كانت هذه الأمور العظام تمثل في أفراد دهـــاة في الماضي. لكن كل شيء اليوم توســع في التفريعات توسعاً يعجز الفرد الفريـــد عن حمل العبء، فحلت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء. وهذا هو خلاصة **الخطوة السادسة** لورثة الأرض.

ولا يمكن إلصاق هذا الفهم بالمجتمع الإسلامي في تاريخنا القريب. ذلك لأن التعليم التقليدي لم يزد على ترداد مسلماتها الثابتة، والمدرسة التقليدية أطلت على الحياة من حافاتها وأطرافها، والتكية (الزاوية) دفنت نفسها في الميتافيزيقا تماماً، والثكنة توترت بالقوة وحدها وزمجرت بالقوة وحدها. فمن الإجحاف إذن أن نحمّل هـــذه المؤسسات في تلك المرحلة مسؤولية نمط الحياة.

في تلك المرحلة، هيمن الفكر الســـكولاستيكي[1] (Scolastique) على التعليم التقليدي ولم يتنفس إلاّ هواءه، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة لغلق أبوابها بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء، وسَلَّتْ التكية والزاوية نفسَها بقراءة المناقب بدلاً عن العشق والشوق، واستحكمت في ممثلي القوة عقدة إثبات الذات والتذكير بالنفس بصورة متكررة لظنهم أنهم قد أُهمِلوا... وفي خضم ذلك، انقلب كل شيء رأســـاً على عقب، وانقعلت شجرة الأمة لتهوي إلى الأرض. ويبدو أن هذه الزلازل لن تسكن

(١) المقصود هو التمسك بالأصول والأساليب التقليدية والاعتماد على المعاني اللفظية ومـــدلولات الكـــلام الموروثة. (المترجم)

إلى يومٍ يتهيأ فيه السعداء الذين يمهّد القدر دروبهم لاستخدام هذه الحركيات استخداماً أمثل، ولتنفيس الاختناقات بين القلب والعقل وفتح ممرات الإلهام والتفكر في أعماق الإنسان النفسية.

الوصف السابع للوارث هو الفكر الرياضي. لقد حقق الأوائل في آسيا في الزمن الماضي، ثم الغربيون، نهضتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنسانية في تاريخها كثيراً من المجاهيل والمغلقات بدنيا الرياضيات المفعمة بالأسرار. فإذا تركنا التصرف المفرط للحروفية جانباً، فإنه لولا الرياضيات لما توضحت المناسبات بين البشر ولا بين الأشياء... فهي – كمصدر نور– تضيء طريقنا في الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة، وترينا ما بعد أفق الإنسان، بل أعماق عالم الإمكان العسير التفكير فيه وتحمله، واللقاء بغاياتنا.

لكن العلم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات لا يعني أن العالِم بها رياضي. الرياضي يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكرياً، ويصاحبها دائماً في الطريق الممتد من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود. يصاحبها دائماً من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهما شاملاً: وأعني الفكر التصوفي والبحث العلمي. لقد أرهق الغرب نفسه لملء فراغ جوهر لم يعرفه أساساً، فحاول سد الحاجة نسبياً بالالتجاء إلى الروحية (Mysticism). أما نحن، فلسنا بحاجة إلى التفتيش عن شي أجنبي أو اللجوء إلى أي شيء لعالمنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقتنا موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية. فالمفيد أن نحيط بفهمنا هذا المصدر والروح كما هو في ثرائه الأول... فنشهد عندئذٍ شيئاً من المناسبات الخفية في الوجود والمحركات المنسجمة لهذه المناسبات، ونبلغ إلى تطلع مختلف، وعرفان ذوقٍ مغاير، في النظر إلى كل شيء.

بعد تقديم خلاصة قصيرة عن الفكر الرياضي قد تبدو غامضة وإسرافاً في الكلام، لكني أثق بدوي أصدائه في المستقبل، أريـــد أن أنوّه إلى **الوصف الثامن** وهو فكرنا الفني. لكني بناء على ملاحظات معينة، أكتفي هنا بقول جولفر: "بعض الأوساط ليست على استعداد حتى الآن للانخراط في هذه المسيرة بمقاييسنا"، فاختم بهذا التنويه.

obeikandl.com

الشورى

الشورى وصف حيوي وقاعدة أساسية لربانيي اليوم كما كانت للورثة الأولين. فهي في القرآن أبـــرز علامات المجتمع المؤمن وأهم خصوصيات الجماعة التي تهب قلبها للإسلام. وتوضع الشورى في القرآن الكريم صفاً واحداً مع الصلاة والإنفاق ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨) فينبه المولى تعالى إلى أن الشورى تعامل يترادف مع العبادة، ويبين هذه المسألة الحيوية في الأمر الإلهي بالاستجابة لله تعالى وذكر ضرورات الاستجابة ونتيجتها: الصلاة والشورى والإنفاق.

فبهذا الاعتبار، لا يُعدّ المجتمع الذي يهمل الشورى مجتمعاً متكامل الإيمان، كما لا تُعدّ الجماعة التي لا تعمل بـــه جماعة مسلمة بالمعنى الكامل. فالشورى في دين الإسلام أساس حياتي لابـــد للرؤساء وللمرؤوسين من إجرائه. فالرؤساء مكلّفون بالاستشارة في السياسة والإدارة والتشريع وأمور كثيرة تتعلق بالمجتمع، والمرؤوســـون مكلّفون ببيان رأيهم وفكرهم فيها للرؤساء.

وأجد فائدة في إيراد ملاحظات عن الشورى. الشورى شـــرط أساسي لإمكان إقرار الرأي الصائب في مسألة من المســـائل. وظهرت كثيراً النتائج الوخيمة والهزيلة للقرارات المتعلقة بالفرد أو المجتمع ما لم يمحّص بـــآراء الآخرين أو تجريحاتهم. وإن مَن ينحصر في رأيه ولا يعتدّ بآراء غيره، مهما كان رفيع الفطرة وعالي الذكاء، بل داهية من الدهـــاة، يتعرض إلى أخطاء وزلات أكثر مما يتعرض لها رجل آخر متوســـط المواهب ينفتح في آرائه بالمشورة. فالإنسان الأعقل هو الأعظم اعتداداً والتزاماً بالمشورة، واستفادة

من أفكار الآخرين. ولا ينجو الـــذي يكتفي في عمله وبرامجه بأفكاره، أو يسعى لفرضها على غيره، من فقدان قدرة حركية مهمة، وزد على ذلك نفوراً وكرها واستثقالاً يلقاه ممن حوله لا محالة.

فالمشورة هي الشرط الأول لاستحصال امرئ خيرَ حاصل من كل عمل يعمله، كذلك هي الوسيلة المهمة لاســـتمداد قدرة تزيد عن قدرته وطاقته أضعافاً مضاعفة.

فينبغي إجراء أوسع استشارة وتحرٍ قبل مباشرة عمل من الأعمال، والجدّ في الأخذ بالأســـباب والتدابير، حتى نتجنب الوقوع في تصرفات مضرة تضاعف المصيبة في النتيجة، مثل تجريح القدر أو اتهام الوسط القريب. ولا مفر من الندم وانكسار الخاطر ما لم يُتدبر في عاقبة الأمر ويستشار أهل المعرفة والخبرة قبل العزم على العمل. وكم من عمل خاض فيه من خاض من غير رويّة، فلم يمضوا فيه غير خطوات، ثم أورثهم الانكسار والانكفاء في أنفسهم، وضعف الحظوة والاعتبار عند غيرهم.

والقاعدة في الإســـلام كنظام، أن الشورى من أهم القدرات الحركية لقيامه ودوامه. فهي أهم العناصر في حل المســـائل المتعلقة بالفرد والمجتمع، والشعب والدولة، والعلم والمعارف، والاقتصاديات والاجتماعيات، فيما لم يرد فيه نص صريح.

إن هيئة شورى الدولة في الإسلام تتقدم على السلطة التنفيذية وترشدها. وهيئة الشورى في الدولة التركية اليـــوم تُعد محدودة في الوظيفة وضيقة الساحة في الحركة ومقيَّدة قياساً بالشورى في الإسلام.

وإن رئيس الدولة ولي الأمر الأعظم ملزم بأصل الشورى وإن كان مؤيداً من الله ومُعلَّما ومُربّى بالوحي والإلهام. هكذا كنـــا من الماضي إلى الحاضر. ولئن وقع إهمال الشورى هنا أو هناك، فإن الشعوب والمجتمعات التي كثيراً ما أجرته بأسماء وعناوين متنوعة لا يستهان بها. ولكن لم يفلح حتى اليوم أي

مجتمع أهمله أو تناساه. وحيث يقول سيدنا ﷺ «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار»[1] يعلق فلاح الأمة وضمان مستقبلها بالشورى.

ترد الشورى في القرآن الكريم في آيتين بالتصريح، وفي آيات كثيرة بالتلميح. هاتان الآيتان المصرحتان بالشورى من غير تأويل أو تفسير بأمره السبحاني هما: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ في سورة آل عمران (الآية: ١٥٩) و﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ في سورة الشورى المبينة (الآية: ٣٨). هذا، وفي تسمية السورة التي فيها بيان الشورى بهذا الاسم حكمة بالغة.

فترد الشورى في هذه السورة وصفاً للصحابة الكرام نائلين للمديح، فكأن في الآية الكريمة تذكيراً فيه بُعدٌ من الثناء لهؤلاء الذين جعلوا الاستشارة محور أعمالهم وأمورهم. وإن اختيار وصف الشورى من أوصاف الثناء والمديح الكثيرة في الأصحاب الكرام دليل على الأهمية العظمى للمشورة.

وكما يجعل القرآن الكريم الشورى قاعدة لها أهمية عظيمة، كذلك السنة السنية تهتم بها اهتماماً بالغاً، بل تحشد لها النصوص حشداً. فكان سيدنا الرسول ﷺ يستشير كل واحد في كل مسألة ليس فيها نص، رجلاً أو امرأة، شاباً أو شيخاً. ومع التقدم الحاصل في ميادين مختلفة، فلم نبلغ بعد في الشورى إلى ما بلغوه في تلك الأيام.

نعم، كان رسول الله ﷺ يستشير أصحابه في كل أمر، ويستطلع ما يرونه ويفكرون فيه، ويستحصل على موافقة رأيهم العام على كل عمل يخطط له، ويستعمل أحاسيس الوجدان العام ومشاعره وميوله كالبنيان المرصوص لتكتسب قراراته قوة خاصة من حيث المقاومة. فقد كان يهيئ مشاركة الجميع روحاً وفكراً في الأعمال التي يبرمج لها، فيحقق مشاريعه بأمتن الحسابات الإحصائية.

---

(١) الطبراني، المعجم الأوسط ٦/٣٦٥.

لنطلع على مشاهد من حياته السنية ﷺ المتعلقة بهذا الشأن:

حين خرج حضرة سيد الأنام ﷺ إلى "أُحد" لقن الأصحاب توصيات ورعى أموراً استراتيجية. ومن هذه الأمور التي أنفذها من غير أن يستلم أدنى إشارة لمخالفة أو اعتراض: وضعُ الرماة في موضع مرتفع من "أُحد"، وتنظيم حال قتالهم للأعداء، وتحذيرهم من ترك مواضعهم مهما آلت إليه مجريات الحرب، ونهيه عن النـــزول لاقتسام الغنائم... وتوصيات أخرى. ولكن الأصحاب الكرام وقعوا في خطأ اجتهادي في انتهاء مدة الأمر باعتبار الوقت، مع رفعة فهمهم للطاعة ودقائقها. فصاروا في وضع مخالفة خفية. وواجه سيدنا ﷺ معارضة ضمنية أخرى في مسيرة "أُحد". فلو كان غيره في موقعه، وواجهته تلك المعارضـــات المتتالية، التي أوقعت هذه الأضرار والخسائر، لأزاح آراءهم بظهر كفيه وقال: اذهبوا... عاقبكم الله! لكنه لم يفعل ذلك. بل كان يقرأ عليهم وهم منهمكون في البحث عن المذنب والبريء: ﴿وَشَـــاوِرْهُمْ فِي ٱلأَمْرِ﴾ ويجمعهم للتشاور ووجهه يقطر دماً بأوحش اعتداء للأعداء سبّبه أصحابه، وسط أشلاء أجساد الشهداء، وشَدَهِ الأصحاب وحيرتهم في أنفسهم، حتى توجّه بعضهم نحو المدينة في تلك المحنة، غير مبالٍ بما حصل. ولا يكتفي باستشارتهم، بل يبلغهم بأمر الله لـــه بطلب العفو والاستغفار لهم.

وهكذا يُظهر رسول الله ﷺ بأنه مأمور بالشورى، مع مضاء حياته السنية في أنوار الوحي، فيذكّر الرؤساء بمسؤولياتهم، ويفسح السبيل أمام المرؤوسين لتقويم آرائهم، ويرشدهم إلى إعانة الرؤساء، ويحذر هؤلاء من الاستبداد.

وقـــد روي عن رســـول الله ﷺ أنـــه لما نـــزل الأمر الســـبحاني: ﴿وشَاوِرْهُم فِي ٱلأَمْرِ﴾ عقب غزوة أُحد، أفصح بأن الله تعالى ورسوله ﷺ غنيان عن المشورة. لكن الله أرســـله رحمة للأمة، وأن من استشار أصاب، ومن تركه ضل. فنفهم أهمية التزام الرؤســـاء بالشورى من أمر الله تعالى

لنبيه بها مـــع اســـتغنائه عن الشـــورى وانعدام حاجته إليـــها.

ونعرض عليكم شيئاً من جواهر أحاديث تملأ الدنيا، تشرفت بالصدور عنه ﷺ:

«ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد» .[١]

«ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد باستغناء برأي».[٢]

«إن المستشار مؤتمن».[٣]

«والله ما استشار قوم قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرتهم».[٤]

لذلك، اتفق علماء الإسلام على أن الشورى أصل من أصول الإسلام وحكم يلزم العمل به. وقد نفذ هذا مع الاختلاف في التنفيذ على مدى الزمان في العهود المتعاقبة وفي مواجهة أوضاع خاصة.

* * *

وبدهي أن الشورى ليست مصدراً تشريعياً تســـبق الأوامر الإلهية. نعم، الشورى أســـاس لقوانين ونظم، لكنه محدود بمصادره التشريعية الحقيقية. فالإسلام لا يسمح بالتدخل الإنساني في المسائل التي ورد فيها نص صريح. ففي هذه المسائل تراجع الشورى لاستشفاف المقاصد التي يعبر عنها النص. وما عدا ما ورد فيه نص، فهو في مجال الشورى تماماً. وما يقرره الشورى من نتائج وقرارات في هذه المسائل، مُلزمة كإلزام النص... ولا يجوز مخالفة ما يتقرر عن الشورى بعد ذلك، أو سرد الآراء والأفكار المتناقضة معها. فإن وجد خطأ في قرار الشورى مع اتفاق الجمهور، فيُزال الخطأ بالشورى أيضاً.

وصحيح أن نصوص الشورى تفيد العموم في معنى من المعاني، لكنها

---

(١) الطبراني، المعجم الأوسط، ٣٦٥/٦.

(٢) مسند الشهاب، ٦/٢.

(٣) أبو داود، الأدب ١١٤؛ الترمذي، الزهد ٤٩؛ الأدب ٥٧.

(٤) البخاري، الأدب المفرد، ١٠٠/١.

تخصصت أيضاً بتعلق النصوص بمواضيع معينة، وبعمل رسول الله ﷺ وتصرفه. إن النصوص في الإسلام أبانت مواضيع معدودة تفيد أصولاً كلية وقواعد عمومية، ولم تفصل كثيراً فيما عداها من الأمور المحسوبة من التفرعات. أما المسائل التي لم يرد فيها نص، فهي في مجال الشورى بتمامها ومعروضة على التشاور. فانطلاقاً من وضع الإسلام للمسائل التي وردت فيها أحكام صريحة خارج حدود الشورى، والمسائل التي لم ترد فيها أحكام صريحة داخل حدوده، فإنه يبقى في حال من الأحوال مرتبطاً بالإسلام وموجهاً بالقرآن والسنة وساعياً لتحقيق الغاية المبينة في كتاب الله. ولا شبهة في أن الإسلام يستهدف أول ما يستهدف غايات مثل: تحقيق المساواة بين البشر، ومحاربة الجهل ونشر العلم، ونسج المسائل كلها حول الهوية الإسلامية ومنع تضاد المسلم مع ذاته، وتوجيه إنسان هذا الوطن للحفاظ على منزلته ووقاره في الموازنات الدولية، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الفرد والمجتمع، وتطوير مشاعر الشعب برمته وبجميع أفراده، في الحب والاحترام والاهتمام بِهَمّ الآخر والتضحية ورهافة أحاسيس الفيوضات المادية والمعنوية للحياة من أجل الآخرين، ومراعاة الحفاظ على الموازنة بين الدنيا والآخرة، وتنظيم السياسة الداخلية والخارجية، ومتابعة التطور في العالم، وتجهيز مصادر القوة وتحديثها، وحتى فرَق الحرب النفسية، إلى درجة القدرة على مواجهة العالم متى ما لزم. لم يبرح القادة الكبار ورجال الفكر العظام والفلاسفة العمالقة معالجة مثل هذه المسائل الإنسانية منذ قديم الزمان وحتى الآن. ولقد اهتم رسول الإسلام الجليل ﷺ بهذا الهدف في إطار مسؤوليته التشريعية والتمثيلية في سنوات حياته السنية، وأقام على هذا الأساس حياة البشر وأنشطتهم الثقافية ومساعيهم وجهودهم ومناسباتهم مع بعضهم البعض، فحقق بهذه الوسيلة الروابط بين مشاعرهم وأفكارهم وعقولهم ومنطقهم وأحاسيسهم وقلوبهم.

* * *

وإن للشورى نتائج تَعِدُ بها بخصوصياتها، وقواعد توصل إلى هذه النتائج، من جملتها: رفع مستوى الفكر والمشاركة في المجتمع، والتذكير بأهميته بالرجوع إلى رأيه في كل حادثة، وتشجيعه على توليد الأفكار البديلة، والحفاظ على حضور الشورى وحيويتها من أجل مستقبل الإسلام، وتحقيق مشاركة السواد الأعظم في الإدارة بقدر الإمكان في كل مناسبة، وإدامة حياة الإحساس بمحاسبة الرؤساء متى ما اقتضت الحاجة، وإعاقة تصرف الرؤساء الاعتباطي وتحديد تصرفهم.

قلنا آنفاً إن الله تعالى قد أثنى على الصحابة الكرام بالآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ بناءً على الأهمية الحيوية للشورى، وإن حكمة بالغة تنطوي في أمر الله تعالى لسيدنا ﷺ باستشارة أصحابه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ والمعركة شارفت على نهايتها، وفي أثقل الساعات شدة، ومع أصحابه الذين كانوا سبب هذه الشدة!

إن أصل الشورى الذي تشرف بالتنزيل في هاتين الآيتين، أصل متوسع المرونة، مُلَبٍّ لاحتياجات العصور، مُتَخَطٍ لحدود الزمان. فمهما تغير العالم وتعاقب الزمان، وحتى إن رحل الإنسان إلى الفضاء وعمّر مدناً هناك، فلا حاجة لزيادة شيء على هذين النصين. وفي الحقيقة إن أصول الإسلام وقواعده الأخرى كلها تمتاز بالمرونة نفسها وتتفتح على الكونية عينها... ولقد احتفظت بشبابها وعمليتها على مرّ الزمان، وستبقى كذلك.

* * *

ومن المفيد أن نذكّر بأمور من أسس الشورى، هي:

١– الشورى حق للرؤساء وللمرؤوسين، ولا رجحان حق في استعمال هذا الحق لطرف على الطرف الآخر. وفي أمره تعالى: ﴿وأَمْرُهم شُورَى بينَهم﴾ دلالة إلى مساواة الطرفين في الشورى. فأمور المسلمين شأن للمسلمين كافة، لذلك يتساوون جميعاً في حق النظر فيها. لكن هذا الحق

يتغير بتغير الزمان والمكان والحال، ويستتبع تغيراً في صورة إجراء الشورى وشكلها.

٢– لما كان الرئيس مكلّفاً بالشورى في الشؤون المتعلقة بالمجتمع بموجب الأمر الإلهي: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فإذن يقع تحت طائلة المسؤولية إن لم يعرض هذه الشؤون الداخلة في نطاق التشاور على أهل الرأي. من جهة أخرى، يتحمل المرؤوسون مسؤولية كتم آرائهم إن لم يبدوها متى عرضت عليهم هذه الشؤون للتشاور. بل يعدون مقصرين في أداء حقوق المواطنة إن اكتفوا ببيان الرأي، ولم يجهدوا في الإقناع على الأخذ بالرأي المطروح.

٣– ومن الأسس المهمة: طلب رضا الله تعالى وتحري مصلحة المسلمين في الشورى، والامتناع عن تحريف آراء أهل الشورى عن وجهتها بالرشوة والضغط والتهديد. يتفضل رسول الله ﷺ فيقول: "إن المستشار مؤتمن" فمن استشير في شيء فعليه أن يشير وكأنه يشير لنفسه.

٤– قد لا يحصل إجماع في الشورى. فإن لم تتفق الآراء في مسألة إجماعاً، فيعمل برأي الأكثرين وقناعتهم فإن صاحب الشريعة ﷺ يجعل الأكثرية في حكم الإجماع حيث يقول: "يدُ اللهِ مع الجماعة"[١] ويقول: «إنّ أمتي لا تجتمع على ضلالة"[٢] ويقول أيضا: "سألت الله ﷻ أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها".[٣]

ففي بياناته هذه ﷺ، يخطرنا بأن للأكثرية قوة الإجماع، وبلزوم اتباع السواد الأعظم. وفي حياته السنية أمثلة كثيرة على ذلك، منها: تشاوره في أوائل بدر وأُحد وأواخرهما.

---

(١) الترمذي، الفتن ٧.

(٢) ابن ماجه، الفتن ٨.

(٣) المسند للإمام أحمد، ٣٩٦/٦.

٥– لا يجوز مخالفة رأي أو اقتراح بديل لـــه بعد إقراره بالإجماع أو الأكثرية، ما دامت الشورى قد أجريت حسب شروطها. فإظهار الرأي ضد القرار بحجج كصحة الرأي المخالف أو تثبيت هامش بالمخالفة على أصل القرار هو إفساد وإثم. فقد خرج رســـول الله ﷺ إلى أُحد على خلاف اجتهاده، موافقاً لرأي الأكثرية، و لم يبد بيانا من بعده عن رأي الأكثرية مع ثبوت غلطهم، لا في الأول ولا في الآخر، بل ومع إشارة القرآن الكريم إلى احتمال مُساءلة أولئك المقربين عن تلك الزلة في أثناء التجهيز لأُحد.

٦– تنشغل الشورى أكثر ما ينشغل بحلّ المشكلات القائمة، لا بمقررات لحوادث قد تحصل... إن الحياة الإسلامية تبقى مستمرة في ظل النصوص بداهة وطبعاً. أما الوقائع التي تحصل خارج معالجتها أو الخطط والبرامج الضرورية، فتُؤخَذُ بخصائصها وشروطها، ويُحَلُّ كل حادث أو برنامج في ظروفه ومجراه.

٧– تجتمع الهيئة المشكّلة للشورى كلما دعت الحاجة، فتبت في المشكلات والمسائل وتنجز الخطط والبرامج، ولا تنفك عن العمل حتى إكماله. وليس في أيدينا نص عن إجراء الشورى في دورات زمنية معينة، ولا إشارة إلى إجرائها بأجر ومرتَّب. ونحن غير ملزمين بالتطبيقات الجاريـــة بعد مرحلة التشريع. والمشاهَد أن إجراء الشورى بموظفين من ذوي الرواتب يستجلب معه مشاكل معروفة.

* * *

الكلام عن الشورى يتطلب الكلام عن المستشارين بالضرورة. لما كان اجتماع الناس كلهم على صعيد واحد للتشاور محالاً، فالضرورة الملزمة هو الاكتفاء بزمرة معينة منهم. كذلك، ينبغي أن يمتاز هؤلاء بمؤهلات خاصة بناء على حاجة الشـــورى إلى العلم والممارسة والاختصاص والخبرة بدرجة كبيرة، حسب المواضيع المطروحة للتشاور. وهم من اصطلح العلماء على

تسميتهم بأهل الحل والعقد، الكبار المقدمين المقتدرين على حل المشكلات. والضرورة تحكم بتواجد أهل الخبرة والاختصاص في المواضيع العلمية والفنية والهندسية المتعددة التي هي من مصالح المسلمين، زيادة على توافر المعاني والروح والعلوم الإسلامية، في الكبار المقدمين من أهـــل الحل والعقد، وخصوصا في أيامنا، لتشابك الحياة وتحول كل مشكلة إلى مشكلة عالمية. في هذه المسائل، يمكن الاعتماد على أهل الاختصاصات المتنوعة في الشورى، بمراعاة التوافق مع الدين حسب تدقيق أعلام علماء الإســـلام. وكما أن الشورى مناطة بأهل الحل والعقد، فإن شكل إجرائها بتغير الزمان والأحوال مناط بهم أيضاً. فنجد حينما نقرأ أوراق التاريخ تنوعاً في تنفيذ الشورى على مر العصور وتغير الأحوال. فهي تُجرى في دائرة ضيقة تارة، وفي دائرة أوسع تارة، ولا تتجاوز دائرة المدنيين مرة، وتفتح أبوابها لأرباب السيف وأرباب القلم مرة أخرى، في أوضاع متنوعة بتقلب عصور التاريخ. وليس ذلك بسبب تعرض هذا الأصل إلى التغيير، بل بسبب المرونة والعالمية التي تجعل الشورى قابلة للتطبيق في كل عصر ومكان.

ومهما تغيرت أشكال إجراء الشورى حسب الزمان والمكان والأحوال، فإن اتصاف الكبار المقدمين بالعلم والعدالة والدراية والنظر والخبرة والحكمة والفراسة ثابت لا يتغير. العدالة هي أداء الفرائض واتقاء المحرمات وتجنب ما يناقض القيم الإنسانية. والعلم هو الدرايـــة والخبرة في الديـــن والإدارة والسياسة والفن. ولا يلزم أن يكون الفرد نفسه متخصصاً في فروع العلم المتنوعة، لكن اللازم أن تكون الشخصية المعنوية لهيئة الشورى متفتحة على كل هذه المواضيع. ولا مندوحة في الرجوع إلى أهل الدراية من غير علماء الإسلام في الموضوعات المعتمدة على النظر والخبرة. وكما قد تحمل الحكمة في دلالتها ومعنـــاها على العلم والحلم ومعنى النبوة، كذلك تصرف إلى الاطلاع على ما خلف ســـتار الأشياء والنظر والشعور بالأمور الغائبة عن الناس بنور الفراسة، والقدرة والقابلية والفطانة في حـــل المعضلات الفردية

والاجتماعية. فأهلها قليل ووزنها ثقيـــل وتحظى في كل زمـــان بالتوقير والقبول.

* * *

وينبغي التوقف ملياً عند اهتمام سيدنا النبي ﷺ في حياته السنية كلها بالشورى، والاحترام لرأي كل امرئ مهما كان ســناً وعقلاً. فكان ﷺ يرجع إلى آراء الآخرين في كل وقت... ويستأنس بنظرهم ويتحرى عن أقوم السبل لتأسيس خططه وبرامجه على أرض صلبة. فمرة يستطلع نظر أهل الرأي فرادى، ومرة يجمعهم معاً ليسند الشورى بالشعور الجماعي. وهذه نماذج من سيرته تنير المسألة:

١– في حادث الإفك: استشار ســيدنا ﷺ عليا وعمر وزينب بنت جحش وبريرة وغيرهم من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. فأشار علي ﷺ برأي يذهب فيه إلى التفريج عن كربة ســيدنا ﷺ. وتوقف عمر وزينب وبريـــرة وكثير من الذوات المباركة رضوان الله عليهم عند طهارة وزكاة وسمو أمّنا عائشة رضي الله عنها. وقـــد رويت في مشورة عمر ﷺ محاورة لطيفة وإن انتُقِد سندها. فقد ســـأل رسول الله ﷺ عما يراه في أمّنا عائشة رضي الله عنهما. فأكّد عمر طهارتها وزكاتها. فلما سأله سيدُنا عن مستند حكمه هذا أجاب مذكّراً بأنه كان عليه الصلاة والسلام يصلي بهم مرة، فخلع نعله أثناء الصلاة. فلما سُئل عن ســبب خلع النعل أثناء الصلاة رد بأن جبريل عليه السلام أنبأه بلوثة نجاسة في النعل. فإن كان الله ينبئ عن لوثة نجاسة في نعل رســـول الله ﷺ، فكيف يعقل أن لا ينبئ عن شيء يلحق بزوجه ﷺ؟ ولئن تعلق أصل الرواية هذه بشِباك موازين الجرح والتعديل، فالعبرة لا تناقش.

٢– في غزوة بدر استشار الرســـول ﷺ المهاجرين والأنصار. فتكلم المقداد ﷺ عن المهاجرين، وسعد بن معاذ عن الأنصار كلاماً يقرب بعضه

من بعض في نصرة رسول الله ﷺ فيما يراه، مفعما بالإيمان والحماس والتسليم له. فوجها جماعتيهما إلى تأييد القرارات المتخذة وإنفاذها. فهناك يجعل رسول الله ﷺ عموم الناس أصحاباً لقرارات حيوية ويستنصر بالوجدان الاجتماعي إلى جانبه.

٣– وفي بدر أيضاً استشار ﷺ حباب بن منذر والأصحاب عن المنزل الذي ينزله جيش الإسلام وفي أي واد يلقى العدو، وأقر قرارات أنفذها الجيش المسلم، فتغلب على قوة العدو البالغة ثلاثة أضعاف المسلمين أو أربعة أضعافهم في حملة واحدة، عاد بعدها إلى المدينة تحدوه أناشيد النصر.

٤– وفي وقعة الأحزاب: استشار ﷺ الأصحاب الكرام، فمال إلى رأي سلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين، بحفر خندق حيث يظن دخول الأعداء منه إلى المدينة. فكان أنموذجاً للأهمية التي يوليها للشورى.

٥– في صلح الحديبية: اهتم بالشورى اهتماماً بالغاً، فاستطلع رأي الجمع الكثير، وبعده استشار أمّنا أم سلمة، ثم أبان عن نهج واستراتيجية حسب الآراء والأفكار التي سارت في استقامة ميوله الذاتية، فغيّر هزيمة لا مفر منها إلى نصر مؤزر في عودته إلى المدينة.

إن التحري في حياته السنية ﷺ يظهر أمام النظر الشورى في كل مسألة أو معضلة لم ينزل فيها وحي، والأخذ بها بعد العرض على الوجدان الاجتماعي. وليست مجالس الشورى في دول الإسلام المتعددة بعد ذلك، إلا صوراً مبسطة للشورى الأولى، وهيئتها الأولى.

الحركية والفكر

يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر... حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة.

وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات، الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل. فإن لم نتحرك نحن، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم.

إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغماً عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء. وتعاجزنا عن حماية جزيئاتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا. ينبغي على الذين يبرمجون لبقاء الذات أن يطلبوه بكل رغباتهم وميولهم وقلوبهم ووجدانهم وحركاتهم وأفكارهم، لأن حضور الوجود يقتضي توتراً تاماً في الجوهر الإنساني. نعم، يقتضي الوجود بداية، ثم إدامة الوجود، ذراع الإنسان وجناحه وقلبه ورأسه. ونحن إن لم نضحّ منذ الآن بقلوبنا ورؤوسنا من أجل وجودنا في الغد، فسيطلبها منا الآخرون بوقاحة في مكان وزمان لا نفع لنا فيه قطعاً.

إن أهم مميزات الحركية الإسلامية والفكر الإسلامي هو: أنْ يكون

وجودُنا ذاتَنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونسـيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، (ويعني الحفاظ على خطنا الخاص إذ نتكامل مع الكائنات كلها). ومن لا يرتبط باعتبار عالمه الخاص بعموم الوجود، ولا يحس بعلاقاته مع الكائنات، وينكفئ في روابط مطالبه الفردية والجزئية في مواجهة الحقائق الشاملة للعالم، فإنه يقطع أواصر ذاته عن الوجود كله، ويجردها، ويسقطها في حبس الأنانية القاتل. ولا شبهة في أن الباعث على انقطاع الإنسان عن الوجود وبقائه وحيداً بذاته، هو: الشهوات البدنية والصراعات الواقعة في أطراف الجسمانية، وكل سلوان فارغ الفحوى وذي بُعد وهمي، يرجع في جذوره إلى تلك الشـهوات البدنية والصراعات الجسمانية. إن دنيا رجل الحركية والفكر الحقيقي، وسعادته في دنياه، ذات تلونات عالمية الشـمول مؤطرة بالأبد. فكأن دنياه لا بداية لها ولا نهاية، أو أنها تتجاوز تصوراتنا. ولذلك، نتذكر أمثال أولئك حينما نقول "الإنسان السعيد". وهل تسمى "سعادة" بحق سعادة لها نهاية أو بداية؟

إن الحركية –من مقترب أفضل– هـو احتضان الإنسان للوجود كله بأصدق وأخلص القرارات، والتدقيق فيه، والسير من خلال المعابر التي فيه إلى اللانهاية، ثم إحلال دنيـاه في فَلَك غاية الخلقة الحقيقية مستخدماً الطاقة الكلية لذكائه وإرادته بالسر والقوة التي اكتسبهما من اللامتناهي.

إن الفكر عمل حركي داخلي. فالفكر المنظم والهادف هو التساؤل من الكائنات بذاتها عن المجاهيل التي تجابهنا في وتيرة الوجود، والاسـتماع إلى جوابها عنها. أو بتصريح آخر: فعالية الشعور الباحث عن الحقيقة في لسان كل شيء وفي كل مكان، بتأسيس قرابة بين ذاته والوجود كله.

إن روح الإنسان يلتف ويتآلف مع العالم بالفكر وفي ظل الفكر، فيتعمق باستمرار في ذاته وداخل نفسه.. ويمزق قوالب العقل المعاش الضيقة ليفيض خارجاً، ويتحرر من الأوهـام المنسلة إلى أغوار الروح.. يتحرر، فيوائم

الحقائق التي لا تُزيغ ولا تُضل. وبعبارة أخرى، الفكر هو تفريغ داخل الإنسان من أجل أن يتسع المكان للتجارب الميتافيزيقية في أعماق داخله بالذات. هذا هو أول مدارج الفكر. وأما المدرج الأخير في ذاك السلم فهو الفكر المتحرك.

إن حركية حياتنا الدعوية والفكرية هي حياتنا الروحية.. في حال لا يمكن به فصل حياتنا الروحية عن فكرنا الديني. فقد تحقق كل صراع من أجل الوجود والحضور، خاصة شعبنا، باللجوء إلى المعنى والروح الإسلامية.. وظهر بارزا بالأعماق التي يختزنها في ذاته كلما توجه إلى الإسلام، كما يتسامق البذر إلى السنبلة متى ما استقر في صدر التراب، وكما يتفتح البرعم حين يستقبل النور. هذا التوجه وبلوغ الذات، يحقق تنامياً وتوسعاً في الإمكانات المكنونة في كنهه، وضمانا لوجوده وبقائه. وكما يتحقق بالعبادة والذكر والفكر تقاسم القلب والروح لمستوى الحياة في عالمه الداخلي الذاتي، فإن احتضانه للوجود كله، واستماعه إليه "هو" في وجيب نبضاته، وإحساسه به "هو" في كل كلية لعقله، يرتبط بشعور العبادة وجهد الذكر والفكر عنده. فمن البديهة أن كل تصرف للمؤمن الحقيقي عبادة، وكل فكر منه مراقبةٌ، وكل كلام له مناجاةٌ وملحمةُ معرفة، وكل مشاهدة منه للوجود تطلّع وتدقيق، ثم كل مناسبة بأهل وطنه شفقةٌ رحمانية. وإن بلوغ هذا المعيار من الرحمانية مرتبط بالانفتاح على الأحاسيس، فالمنطق والمحاكمة، ثم من المنطق والمحاكمة إلى الإلهام فالواردات الإلهية. وبإفادة أخرى، من العسير الارتقاء إلى هذه الذروة ما لم تمرر التجربة من مصفاة العقل، وما لم يُسلّم العقل نفسه للفطنة العظمى وما لم يقع المنطق في حال الحب عينه، وما لم ينقلب الحب أيضاً إلى العشق الإلهي، فإن تحقق، فبهذا النظر يكون العلم بُعداً من أبعاد الدين وخادماً له، والعقلُ طيفَ نور يصل به الإلهام أينما يشاء، والمكتسبات التجريبية منشوراً يعكس روح الوجود... ويصدح كل شيء بصوت أناشيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني.

ولئن كان إنســـاننـــا -ببعض جماعاته- يحمل المشـــاعر والفكر بعينه، ويتقاسم -أو هو في وضع تقاسم- الحالة النفسية بعينها، ثم لا يتصرف تصرفاً إيجابياً بقدر ما ينبغي ورغماً عن هذه المفاصل المشتركة الواسعة، بل قد يقع أحيانا في انحرافات وسلبيات، فالجدير هو أن ينبش عن السبب في غياب الإيمان بمعناه الحقيقي. فتصرفات المؤمن الحق إيمانية التلون دوماً، وحركاته تدور في فَلَك الفكر أبداً، مهما كان القالب الذي يحصره، ومهما كانت المضادات التي يسحب إليها.

لذلك، ينبغي أن يستشعر وارثو الأرض الذين يخططون لإقامة عالم المستقبل، نوعَ العالم الذي يريدون إقامته، ونوع الجواهر اللازم استعمالها في إعمار هذا العالم.. حتى لا يضطروا هم بأنفسهم إلى هدم ما بنوه بأيديهم من قبل. إن جذور المعنى وأصول الأسس لألف ســـنة من حياتنا -نحن- معلومة ومعروفة. وعلى مهندسي مستقبل الضياء أن يجهدوا في استخدام قوتهم الفكرية -إلى جانب دوافعهم الحركية- من أجل أن تنصت المحركات التاريخية التي ننشئ بها حياتنا الدينية والملّيّة إلى صوت الإسلام كرة أخرى، وتلتقط زاوية نظره وتجس نبضه وتستمع إلى وجيبه، بالاستفادة القصوى من المرونة والامتداد العميق والعالمية في إعلاء بناء هذه المحركات مع الحفاظ على الكتاب والسنة وصوافي اجتهادات السلف الصالح، وحسب مدارك العصر وأسلوبه. ذلك، حتى لا يعيشوا حياة البرزخ في طريق الانبعاث بعد الموت! وكل هذا يرتبط أولاً وقبل كل شيء بالابتعاد عن أثقال النفسانية ودوافعها كافة، والانفتاح على الروحانية، والنظر إلى الدنيا والعلم بها كصالة انتظار إلى الأخرى، وبإفادة أخرى، يتحقق هذا بتعميق الكمية في عباداتنا إلى النوعية، وبإطلاق النقص الحاصل في رياضية الأوراد والأذكار إلى الآفاق اللامتناهية بالنية والخلوصية، وبالمعرفة والاعتبار واليقين في دعواتنا ومناجاتنا وبثنا إلى الذات الإلهية الأقرب إلينا من أنفسنا. ولا يعي هذا المعنى إلا الذين يحسون الصلاة كالطائف في المعراج، ويستلذون من أداء الزكاة كحافظ

الوديعة أو موظف التوزيع، ويعيشون الحج كندوة عالمية لتداول معضلات العالم الإسلامي، وفي أرضية يرصدون فيها نورانية ومهابة الروح والقلب والأبعاد الأخروية.

إن الشعور بكل هذه والإحساس بها، فمعايشتها في الحياة، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطباء المعنويات القادرين على تشخيص بؤسنا الداخلي والخارجي ومداواته، وبمرشدين صادقين مشدودين إلى الأخرويات من غير انقطاع. أولئك المرشدون الذين يمتد عالمهم الفكري من المادة إلى المعنى، ومن الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الفلسفة إلى التصوف. فهؤلاء كانوا وراء أيام العمران المديدة حتى اليوم، وسيكون هؤلاء ممثلين لحركات الإعمار والإحياء الآتية غداً. وسيتحقق هذا التمثيل باستنباط نظريات حقوقية جديدة من مصدري الكتاب والسنة لمعالجة المستحدثات والتوقعات المستقبلية، وتزيين أفكارهم بآراء العالم الجديد، وتطوير متلقيات فنية طازجة تلائم عالمية الإسلام وتركز روح الملّة وشعورها في بؤر الإسلام وترتبط بأحاسيس التجريد، وعجن ثقافتنا الذاتية المستوعبة للدين والدنيا والموروثة من خزائن ألف سنة متصلة. فإن تمثيلا في هذا المستوى لقادر في زمن قصير على تحقيق تصدرنا للأمم الأخرى في العلم والفلسفة والفن وحياتنا الدينية، وتقويم وحدات الحياة كلها على الطريقة المثلى، وجعْلِ أبنائنا المتشردين المنفلتين في الشوارع –سواء الدارسين منهم أو الأميين– رجـــالَ الغد في الفكر والصنعة والمعرفة والفـــن. فتتنفس الأزقة والشوارع هواء العرفان وكأنها أركان المدارس، وتصير السجون أوكاراً للعلم، وتزين الخمائلُ البيوتَ كزوايا الجنة. وفي كل مكان يسير الدين مع العلم يداً بيـــد، وينثر احتضان الإيمان والعقل ثماره في كل صوب، وينبت ويزدهي المستقبل في صدر الأماني والآمال والعزم بألوان وأفنان لا يضاهيها خيال "المدن الفاضلة"، وتنشر التلفزيونات والراديوات والصحف والمجلات في جو الفضاء الفيوضات والبركة والنور، ويرتشف الكوثر كل قلب سائح في ربيع الجنة هذا ما خلا الذي كالرميم المتخلف من التاريخ.

سـيولد هذا التكون الجديد من قيمنا التاريخية وحضارتنا وثقافتنا ورومانسـيتنا... وستظهر هذه الحركة من الحالة الروحية لعصور مستمرة تحت الغبن والقهر والظلم من جهة، ومن جهة أخرى، من حماسة قلبنا المتشبع بالإيمان والمتحفز دوماً والمستعد للانطلاق في كل آن.

إن تحقيق هـذه الرسالة الحيوية مرتبط قبل كل شيء بتحريك دبيب الأرواح الصدئة في هذه الأرضية الصدئة. ويبدو أن المجهود الدؤوب منذ خمسين أو ستين سنة قد نجح في زحزحة الصعاب. فيمكننا أن نئن مع الشاعر المُعَذَّب، إذ يقول: "اضرب بالمعول يا فرهاد، قد مضى الكثير وبقي القليل..." التحرك الأول هو تحرك الروح. وهو يلقي السلام علينا اليوم أينما مضينا كأقواس الترحيب المقامة من أكاليل السماء النورانية، بنعومة السكينة ودفء غيمة الربيع. فلقد اقترب موعد احتضانه لوطن المظلومين والمغبونين والمقهورين كله، وصب وابل حنينه الرحيم زخاً زخاً.

وكأن القوة -اليوم- قد انصهرت في قالب الحق واستسلمت له بعد أن ذاب معظمها. نعم، في وجود القوة حكمة... فلا يمكن حل مسائل كثيرة من غيرها. ولئن كان ضرر -وأيما ضرر- في القوة المنفصمة عن الحق والمنطلقة معاندة له، فإننا نحسب القوة المتحدة بالحق حقاً بعينه. والجرأة المنبثقة من توحد القوة بالحق حامية للمظلوم لا الظالم، ولسان ناطق للحق. والمهم بعد ذلك أن يمثل جند الفكر والحركية إياه.

وسوف أعرّج إلى جند الحركية في عالمنا في موضع آتٍ إن شاء الله تعالى.